نشأة اللغات

وحاجة الأمة للمجمع اللغوى

تأليف

الأستاذ محمود احمد النشوى
الحائز لدكتوراه فى الآداب

(الطبعة الاولي) سنة ١٣٥٣

على نفقة

(الحاج محمد احمد رمضان المدنى)
صاحب مكتبة المعاهد العلمية بالصادقية بمصر

EL-HAG MOH. A. RAMADAN EL-MEDANY
SANADKIA AZHR CAIRO

الثمن عشرة قروش صاغ

نشأة اللغات

وحاجة الأمه للمجمع اللغوى

تأليف

محمود احمد عمر النشوى

أحد العلماء . ومتخصص فى الآداب

﴿ الطبعة الاولي ﴾

ثمن النسخة عشرة صاغ

حضرة صاحب الجلالة مولانا المعظم

فؤاد الاول

ملك مصـــــر



الاهداء

إلى صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الاول . أطال الله أيامه

مولاى:

أشرقت شمس أياديكم . وامتد ظلكم على اللغة العربية لغة الدين والوطن . فوهبتها من نعمك ماجعلها درة اللغات الحية . فاستعادت مجدها السالف . واستردت حلتها القشيبة . ونبغ فيها من الشعراء من تضاءل أمام شاعريته البحترى والمتنبى . ومن الكتاب من توارى امام عبقريته مادبجه يراع عبد الحميد وابن المقفع . فيض من سحابكم تجلى على اللغة فأنبت تلك الازاهير الارجه . ففى عهدكم الزاهر نبتت دوحة كلية اللغة العربية الازهرية . وبسقت أغصان دار العلوم . ونشأت كلية الآداب بالجامعة المصرية . معاهد ترفع من شأن اللغة . ونعم خالدة وصحائف مشرقة في جبين الدهر والايام . فلتهنأ اللغة العربية بما أسديت . ولتفخر بما أوليت

ولقد كنت يامولاي ممن غمرتهم نعمتك. واستظلوا فى ظلك الوارف بارتشاف كئوس العلم مترعة فى قسم التخصص بكلية اللغة العربية فرأيت اول واجب على أن أرفع الى سدتكم العلية تلك الثمرة من غرسكم. قياما بشيء مما يجب نحو مولي النعم. وواهب الحياة للغة العرب

العبد الخاضع

محمود النشوي

الافتتاحية

عجب ! ايبدأ هوميروس ألياذته بذكر آلهة الشعر يزعم انه يستمد منها الوحي والالهام : بل ينسب اليها الرواية والانشاد فيقول

ربة الشعر عن أخيل بن فيلا   أنشدينا واروى احتداما وبيلا

وغريب ان يفتتح كفار مكة والاعراب أناشيدهم بذكر سليمى والرباب بل يذكر آلهتهم الحجرية بينما نغمض الطرف لحظة عن ذكر الله: او تخلى قلوبنا طرفة عين عن التعبد باسم الله . ففي كل سانحة وبارحة وفى كل غدوة وروحة وفي ابتداء تلك الرساله تنفرج شفاهنا عن:

بسم الله الرحمن الرحيم

وفى مفتتح ذلك الكتيب نحيي قلوبنا بحمد الله على تلك النعمه الكبرى نعمة الاسلام والانضواء تحت لواء رسوله الاكبر محمد ﷺ ونبتهل اليه تعالى أن يسدد خطانا : وأن ينير لنا طريق الصواب فى كل رأى نبديه وفى كل سبيل نسلكه فى تلك الشعاب الفسيحة الجنبات :

والهضاب المرتفعات · فلولا توكلنا عليه ماجتزنا صعابها · ولا سلكنا شعابها · فمن الله نستمد القوة وله المنه وعليه يقصر الحمد اللائق بذاته العليه

﴿ البواعث على اختيار هذا الموضوع وحاجة اللغه للمجمع اللغوى ﴾

رأيت ذلك الخطر الداهم · وهذا الانقلاب الخطير . وذلك الجيش الجرار من المسميات الحديثه يغزو اللغه العربيه فى كل النواحي وينتابها من جميع الجهات غير راحم ولا وان فأثارت جزعى وحسرتى تلك الالاف العديدة من اسماء المخترعات الاجنبيه تحتل مكانها بين مفردات اللغه وتكتسحها امامها رويدا رويدا لانها تتمتع بقوة الشباب ونضارة الحداثة

نشأ ذلك الخطر وبدا هذا الانقلاب من المخترعات العلميه الحديثة التى لم يكن يعرفها العرب بل لم تكن تعرفها أمة من أمم المسكونة بل هى طفرة علمية . وقفزة من المعارف ما كان يحلم بها الآباء الاقدمون وكانوا يعدون من يفكر فى تلك الناحية مجنونا تخبطته الشياطين وقابلوا المخترعين والمكتشفين بالقتل والاحراق وصبوا عليهم من ألوان السخرية وصنوف العذاب ما تتبخر أمامه الصخور الجلامد

(فودنيل) مخترع (الفونوغراف) حينما قدم اختراعه هـذا الى المجتمع العلمى الفرنسى قال له رئيس المجتمع . . يجب أن تستحي من

نفسك يا حضرة المهندس الذى جاء يوهمنا أن الذى يتكلم هو تلك القطعة من الحديد مع أنك أنت المتكلم من نفسك .. (وزبلن) مخترع البالونات .. تأمل خطاب رئيس المهندسين له إذ يقول (هو رجل ناقص العقل لكنه غير خطر . ولا يمكنني طرده بالنسبة لعراقة أصله ونبل عائلته . وهو يعتقد أنه سخر الهواء باختراع بالون يحلق في الجو ويمكن أن يديره حيث شاء . وقد حضر الى هنا يطلب منى بصفتي رئيسا للمؤتمر أن أساعده على تحقيق اختراعه هذا . فانتم تشتركون معي إذن فى الرأى بجنون هذا الرجل)

(وفيليب لوبون) مخترع الانارة بالغاز كان الناس يقولون عنه . ما أسخف فكرة هذا المخترع . وهل يمكن أن يقاد مصباح بدون فتيله ؟ از هذا هو الجنون بعينه (وغاليليو) الايطالى الفلكى حينما أعلن أن الشمس هى مركز الكواكب السيارة سخر منه قومه وأحرقوه حياً ..

تلك حالة الأمم جمعاء حتى قبيل بزوغ القرن الثامن عشر . جهل مطبق بما جد وحدث من تلك الاختراعات . وما أن أشرق ذلك القرن الميمون حتى رأيناه يظهر على الناس بما يبهرهم وأراهم العجب العجاب من حديد ينطق ، وهواء يخضع لارادة الانسان يتخذه مطية لينة مسرعة :

وأشعة تخترق الحجب وقدرة على مخاطبة الغير مهما شط به المزار وباعدت بينه وبين مخاطبة الاسفار بل استطاع الانسان أن يخاطب أخاه على بعد مابينهما ويرى صورته وأن ما بينهما من بعد الشقة لآلاف وآلاف من الفراسخ والأميال . ما كان أباؤنا يعرفون المسرة أو الحاكى أو الصدى فكان طبيعياً أن تخلو صحيفة اللغة من تلك الاسماء بل أن تخلو لغات العالم منها . فما سبق الاسم المسمى ولا ذاك من حقه . وها نحن نبصر ذلك من كل ناحيه . ونلقاه فى كل سبيل . فى المنازل وفي الطرقات وفى المشارب والمجالس العامة . وفي المدارس ومعاهد التعليم تري تلك المستحدثات وتتحدث عنها باسمائها الاجنبيه . وأعلامها الاعجمية وهى من الكثرة والقوة بحيث تجعلنا نرهب صولة ذلك الهجوم . ونشفق على لغتنا العزيزة أن تضيع فى ثناياها : ففى الطريق نري السيارة والترام . ونستمع الراديو ينقل الاغانى والمحاضرات . ولو شئنا أن نتعرف أجزاء السيارة وحدها لجابهنا عدداً هائلا من الاسماء . فالدريكسيون . والبوجية . والموتور . والفيتس وعشرات بل مئات من الالفاظ احتوتها تلك الآلة السيارة كذلك الترام بما احتوته أجزاؤه وآلاته من أسماء أجنبية . والراديو وما انطوى عليه أديه من عدد وآلات أعجمية الاسماء . وتلك الجمهرة

الهائلةمن المخترعات الحديثة التى بلغ عديدها أربعة آلاف أو تنيف عن هذاالعدد الضخم والتى نبت منها زهاء الف من عقل أديسون شيخ المخترعين : اليس لكل واحد منها اسم يخصه ، وعلامة يمتاز بها عما عداه ، ولوافترضنا ان كل اختراع تتركب أجزاؤه من عشرين قطعة لكل قطعة اسمها الاجنبي ولهجتها الاعجمية لكنا أمام ثمانين الف كلمة تريد أن تحتل لغتنا وأن تأخذ مكانتها بين صفوفها ومفرداتها . تلك فرقة واحدة من جيش الالفاظ المهاجم للغتنا العزيزة . وفرقة أخرى هى علوم الكيميا وما جد فيها من عناصر وما استكشف فيها من مواد . وحسبي أن أتبين أن العناصر كان الاقدمون يحسبونها أربعة الماء والتراب والهواء والنار فاذا العلم الحديث يظهر أنها تفوق الثمانين عدداً . وأن هنالك عناصر لما تتكشف عنها الايام . وأن عناصر الاقدمين مركبة وليست بالبسيطه كما كانوا يزعمون لكل عنصر اسمه وخواصه وتفاعله مع غيره . وتلك العناصر وهاته الخواص أعلامها أجنبية . .

حسبي أن أتبين ذلك فتروعنى فرقة أخرى هائلة من جيش الالفاظ تهاجم لغتى العزيزة : فقد جابهتنا الكيمياء بأسماء الاكسوجين والايدروجين والهليوم والصوديوم والبوتاسيوم والمغناسيوم والكلسيوم

والباريوم والا . رانيوم الى آلاف من عناصر ذلك العلم ومصطلحاته التى غيرت وجه العالم وبلغت به درجات من الرقى فوق ما كان يتصوره خيال آبائنا الاقدمين

اما النباتات وماعرف منها مماتوافرت عليه آلاف العلماء الذين افنوا حياتهم فى سبيل الكشف عنه . وتعرف ماينتابه من امراض وعلل . وما يحيط به من أجواء تؤثر فى ثمره .: أما الزهور والرياحين ومانبت منها في البلاد الاجنبيه فعديد ذلك يفوق الحصر ويعدو الحساب .:. اكتشف العلماء نباتات ماكان يعرفها اسلافهم وعرفوا لها خواص كان بنو الانسان يجهلونها الي عهد قريب فرأينا نباتات تفترس الحيوان وتلتهمه ورأينا نبات الديونيا تتخذ ورقا كمصيدة الفار حتى اذا مر بجوارها من اتعسه حظه من الحيوان انقضت عليه وامتصته فكان من الهالكين وأعجب من ذلك نباتات تتحرك تلك هى المعروفه بين جماعة النباتيين باسم فاليسنير سبيرياليس تلك النباتات التى تنبت في مجارى الانهار باوروبا وتري الذكر ينفصل عن مكانه باحثا عن الانثى حتى اذا ادركها واتم مأربه عاد الي قاع النهر تكشف كل ذلك وآلاف مثله فى عالم النبات ولكن ماوصلت اليه جهود العلماء فى عالم الحيوان اكثر عددا . وأجل أثرا فالحشرات اكتشف العلماء منها آلافا عديدة كانت خزانة معلومات

الناس منها خاوية والحيوانات الهلاميه وماضمته أحشاء المحيطات من صنوف الحيوانات صغيرها وكبيرها من حيتاز المرورو كال . والكاشلوت ومن أسماك تشع ضوءا ينير سبيلها ويبهر عين مهاجمها واخريات تعمقن فى قرار المحيطات حيث الظلام الدامس فافتقدن أبصارهن لانه لم يبق بهن حاجة للبصر وذاك كله بأسماء أعجميه نحن جد مضطرين الى تعرفها . وخطب ودهاحتى بمجاري الامم فى العلوم والمعارف . وذلك فتح جديد بل فتوحات هائله فى سبيل المعارف والعلوم علوم بلغ عديدها في عصرنا الحاضر الافا كثيره . ولكل علم آلاف من مصطلحاته الخاصة به فلو اتخذنا منطق الرياضيين وضربنا عدد العلوم فى عدد مصطلحاتها لكنا أمام الملايين من المصطلحات وأسمائها . وكلها بعيد عن لغتنا . غريب عن منطقنا العربي الفصيح . فلو اختلط ذلك الجيش الجرار بلغة الدين والقرآن لضاعت مفرداتها فى ثناياه . ومما يجسم تلك الخطورة ويجعلها ضغثا على إباله أن تلك المخترعات حديثة العهد تتمتع بقوة الشباب . ونضارة الفتوة . ذلك الى انها فى الأعم الاغلب أسماء أدوات منزليه يضطر الانسان أن يذكرها فى حديثه مرات كثيره فى اليوم الواحد . ونحن نعلم أن بعض الاسماء قد يذكرها المرء فى حديثه كل يوم كاسماء الطعام والشراب وبعضها قد لا يذكرها لا فى العام مرة

ككلمات الكتاب والدرس في فم الزارع بينما الزارع تدور على لسانه أدواته الزراعية مرات كثيرة. فاذا تألمنا أمر تلك المستحدثات وعلمنا كثرتها في العدد. وكثرتها في الدوران على اللسان تجسمت لنا خطورتها المحدقة بلغتنا العزيزة. يواجهنا ذلك الخطر طفره. ويندفع في سبيلنا جملة دون شفقة ولا رحمة لاننا اليوم نريد أن نأخذ بأسباب العلوم والمعارف. نريد أن نرقى درجات الحضارة والمدنية وسيجرفنا ذلك التيار سواء كرهنا أو أحببنا. ولو كان منا مكتشفون أو مخترعون سايروا النهضة العلمية ابان بزوغ فجرها لوضعوا لنا أسماء تلك المصطلحات أولا بأول ولاستطاعوا أن يسموا كلا باسمه العربي في حينه. وأن يخففوا عن كاهلنا ثقلا ننوء اليوم بحمله. ولكن شاء القدر القاسي أن يتقدموا في المعارف والعلوم. وأن نتأخر عنهم بمراحل (ذلك كله) ما أثار في نفسي لواعج الحزن والاسى فأثمرت لواعج الاسى في نفسي ذلك الكتيب الذي أتقدم به الى الامة العربية أهيب بها أن تكرس جهودها نحو لغتها بوضع الفاظ عربية للمصطلحات الحديثة. وهو ما سيقوم به المجمع اللغوى المصرى. ولكننا على ثقة من أنه مهما قوى ساعده فلن يستطيع القيام وحده بتلك الاثقال الهائلة ما لم تمده الامة كتابها وشعراؤها وعلماؤها واطباؤها. وأساطين الصيدلة والكيمياء والطبيعة بروح تفيض حبا للغة وفناء في سبيلها

﴿ اللغة والاجتماع ﴾

حكمة رائعة افترعنها ثغر أحد الفلاسفة الحديثين حين نطق الجملة الخالدة . ان شكسبير خير من الهند لانجلترا ولقد صدق ذلك الحكيم فيما أبدعه من فكره . فان شكسبير هو رمز الوحدة فى اللغة الانجليزية . واللغة من أهم الروابط الانسانية توحدا التفكير . وتجمع العقليات . ومتى اتحدت عقليات الامة وأساليب تفكيرها كونت شعباً قوى الدعائم . رصين البنيان . وذلك وحده هو أساس النهوض . ودعامة القوة . ولو ضعفت لغة أمة من الامم : وطغت عليها سيول اللهجات المختلفة فلا تلبث أن تتبلبل السنتها . وان تفترق بها السبل فتصبح فى عداد الموتي . ولو تصفحنا تاريخ الامم والشعوب لرأينا كيف ان انحلال الامة يبدؤ بانحلال لغتها . قضية جرت فى كل شعب وفي كل أمة . وهذا واضع علم الاجتماع ابن خلدون يحدثنا فى خلال مقدمته بذلك الارتباط المتين بين قوة الامة وقوة لغتها

وقد اقتنعت الامم الحديثه ذوات اللغات الحية بما للغات من أثر خطير فى تكوينها الاجتماعى فألفت الجمعيات ترفع من شأن لغاتها فى الداخل والخارج . وقد أصاب مصر رذاذ ذلك الوابل فهام الفرنسيون

وجمعيات الاليانس المكونة منهم تفتتح المدارس في القاهرة بنفقات لاتكفى نفقات الاضاءه . وهاهم الطليان يسيرون على غرار الفرنسيين يفتتحون مدارسهم في بلادنا لنشر لغاتهم ويعدون النابغين بأن سيرسلونهم الى بلادهم لاتمام التعليم هنالك . وها هو ملك الطليان يعطى وساما عالياً لمن ترجم كوميديا دانتى اليجيرى . وما قصر الالمان فى ذلك المضمار بل لهم مدارس لاتزيد نفقاتها فى العام على جنيه واحد

وذلك سبيل حملهم على السير فيه ماعلموه مما للغه من خطر عظيم فى تكوين الاجتماع وتقوية دعائمه . اليس فيما نشاهده أمام أعيننا . وما سجله التاريخ برهان صدق على تلك الصلة المتينة بين اللغة والاجتماع ذلك مالا يمترى فيه عاقل

اللغة والتفكير

نظرة منا فاحصة للحيوان والانسان . لذلك الكون وما فيه من القبائل المتوحشة الضاربة فى أدغال أفريقيا وأحراجها . وصحارى واستراليا وجبالها ثم في بطون التاريخ وما احتواه أديمه من ذكريات الامم . الخالية ننظر من خلالها ذلك الارتباط الوثيق بين رقى اللغة ورقى التفكير . وانحطاط اللغة وانحطاط التفكير . فحيث نري اللغه منحطه ساذجه أوليه نرى التفكير منحطاً ساذجاً أوليا . فالحيوان الاعجم التوى

لسانه وعجز عن النطق فعجز عن التفكير . وتلك القبائل المستوحشه التي استوحشت معها لغاتها . وقات الفاظها حتي لم تعد تتجاوز أصابع اليدين والرجلين عدا ضعف تفكيرها وقل انتاجها العقلي ، اما الامم التي قويت لغاتها فها نحن نراها استولت على الدهر فتي ، نحس من آثارها العلمية مايبهر الابصار ، أليس في ذلك كله ماينطق بتلك العلاقة الساحرة بين التفكير والمنطق اللغوي ، ذلك مالا نجد سبيلا لنكرانه والمماراة فيه ، ولو أننا عدمنا اللغة لعدمنا كل مانفخر به من علوم ومعارف وذلك التراث العلمي الذى خلدته الايام ماكان ليصل الينا الا عن طريق اللغه وتقييدها في بطون الكتب وسجلات الاوراق . واحتاج كل انسان ان يفكر تفكيرا أوليا فى كل شيء ، لانه ضل عنه كل شيء من مجهود الغير وثمرات تفكيره ولنفرض أنه فكر في شيء فأحس به ثم أدرك وجوه اتفاقه واختلافه وانتهى من عملية الملاحظة والمقارنه والحكم الاثرى معى أنه لابد له من اسم يطلقه عليه حتى يستطيع استحضاره اذا دعته اليه حاجة . وحتى لا يضطر الى اعادة عملية التفكير وتعرف مميزاته وصفاته فى كل مرة . فما كانت اللغة وسيلة للتفاهم فحسب . وانما هى رموز المعقولات والصور الذهنية وقوالبها التى صبت فيها : ولولا ذلك القالب الذى يحفظ السائل لعبثت به يد الضياع فزال قوامه : وفنى

وجوده : وقد ضرب لنا (مكس مولر) مثلا رائعا وضح به تلك العلاقة بين اللغة والتفكير حيث يقول : مثل اللغة مع التفكير كوجهى قطعة النقد لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر : وما كان الانسان ليقدس اللغة حبا في سواد عيونها : وتعشقا لنغماتها وأجراسها وانما ذلك لانها سجل تفكيره تحفظه له وتنقله عنه الى أخوانه في الانسانيه . ومن يتلوه من الأحيــــاء

اللغات وضعيه أم اصطلاحيه ؟

أمام ذلك الحدث الخطير . وازاء ذلك السيل الجارف من الالفاظ الاجنبيه الذى يريد أن يكتسح لغتنا . والذى كلما أوغلنا فى المدنيـة . وأخذنا بأسباب العلم الحديث نحس بثقله على كاهلنا حتى يكاد يتنزل بها الي الهاويه : تجاه ذلك كله : نرى أن الاحتفاظ بلغتنا كاملة غير منقوصة بريئة من جيوش الالفاظ واللهجات التى لا تتوافق مع مزاجها وتكوينها سبيله الوحيد وضع الفاظ استقيت من معين لغتنا العربيه الذى لا يكاد ينضب ، ونبتت من حدائق مشتقاتها التى تفوق عدد السنين والحساب وبرزت من خدر المجازات والاستعارات والكنايات التى اتشحت بها لغتنا . فكانت دمية أخذت بأطراف الحسن من كل نواحيه ،،

فلو اننا أخذنا برأى القائلين بأن اللغات توقيفيه لا يجوز لاى

انسان أن يضع شيئا من عنده لافسحنا السبيل لذلك السيل الجارف من الالفاظ الاجنبيه ولضاعت لغتنا فى ثناياه ، تجاه ذلك كله نحس بقلوبنا تتجهم فى وجوه القائلين بأن اللغات توقيفيه ، وتشرق باسمة فى وجوه القائلين بأنها اصطلاحية لان حياة اللغة ليس لها طريق غير السير على غرارهم ، والاخذ برأيهم ، وكيلا يكون لهم علينا من حجة نتعرف من هم ، ثم نناقشهم الحساب حتى اذا تبخرت أدلتهم أدلينا بما عندنا من براهين قاطعة على أن اللغات اصطلاحية ثم نهيب بالامة العربية ، وبكل ذى تفكير ورأى فيها وخصوصا أولئك اللذين تتصل مهنتهم بتلك المصطلحات من علماء النبات والحيوان ، وعلماء الفسيولوجيا والجيولوجيا والتكنولوجيا والبكتريا أن يشمروا عن ساعد الجد ، وأن يضعوا أو يقدموا للمجمع اللغوى أسماء عربية لتلك المصطلحات . حتى تتسع مادة اللغة من ناحية ، وحتى لا تعبث بها يد الضياع من ناحية أخرى ولا يفوتنا قبل أن نخوض غمرات الحجاج أن نسدى آيات الشكر خالصة للدكتورين العظيمين ، الدكتور معلوف ، والدكتور عيسى ، فقد رأينا لكل منهما مجهوداً كبيراً سوف يخلد ذكرهما في جبين التاريخ مابقيت اللغة العربية الخالدة

.. وبعد هذا الاستطراد الى واجب الشكر نعود الى الاصطلاح

والتوقيف . وكلاهما أثار نزاعا بين علماء اللغه منذ فجر التاريخ . ولا زالت المسألة مثار النزاع والجدل ، وحسبك أن تعرف أن (أفلاطون) أبدى رأيه فى المسألة لتعلم أن تلك الناحية شغلت ذهن الانسانية من آماد سحيقة ، بيد أن افلاطون خانه التوفيق فى رأيه ، فقد أفتى بان اللغات توقيفيه نزلت على الانسان جملة علمها دفعة ثم أدلى بها الى غيره دفعه ، ثم تناقلتها الاجيال من بعده ، وأتبعه على رأيه من أئمة المسلمين أبو الحسن الاشعرى على بعض الروايات عنه ، وأبو الحسن بن فارس والكعبي والجبائي من المعتزلة ، غير انهؤلاء الأئمة ما كانوا يتعقبون خطى أفلاطون ، وانما اتبعوا ظاهر الآيه الشريفة (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) وأحاديث ينسبونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأزاء هؤلاء وفي الناحية الاخرى وقف جماعة الاصطلاحيين وهم جمهرة أهل النظر ، وكثير من علماء الكلام . وتوسط فريق آخر فقالوا بالاصطلاح فى البعض دون البعض الآخر ومن هذا الفريق الغزالى والقاضى أبو بكر ، وأبو اسحق الاسفرايينى وامام الحرمين ، وفر فريق رابع من الميدان وقال بالتوقف وعدم ابداء رأى من الآراء وقد احتج أولو التوقيف بالآية الشريفة وبما رواه وكيع عن شريك عن عاصم الجرمى

عن سعيد بن معبد عن بن عباس رضى الله عنهما أنه قال . علمه كل شيء حتي القصعه والقصيعه والفسوه والفسيه ، ولهم دليل آخر عقلى خلاصته أن الاصطلاح لابد له من اصطلاح آخر ، وذلك الآخر لابد له من آخر فيتسلسل الامر أو يدور ، وهنا لك اتخذ فريق الاصطلاحيين مجناً يذودون به عن أنفسهم فأولوا الاية بأنه

﴿١﴾ يحتمل ان تكون علم بمعنى الهم كقوله جلت قدرته وعلمناه صنعة لبوس لكم

﴿٢﴾ يحتمل أن تكون الاسماء أسماء الملائكة وقدوردت آثار بذلك عن الربيع بن يونس

﴿٣﴾ يجوز أن تكون أسماء النجوم كما رواه حاتم عن حميد الشامى

﴿٤﴾ لم لا تكون أسماء ذريته كما رواه ابن جرير عن أبي زيد

﴿٥﴾ لم لا تكون الاسماء بمعنى العلامات فأن الاسم فى اللغة بمعنى العلامة وتعليم آدم العلامات التى يميز بها الخبيث من الطيب أشرف من تحفيظه مجرد أسماء

﴿٦﴾ لم لا تكون أسماء قوم فنوا قبل آدم حتي يتناسق مع قول الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها لانهم ظنوا أن الآدميين سيكونون كالسابقين

﴿٧﴾ ميم الجمع فى ﴿ بأسمائهم ﴾ تدل على أنها للعقلاء وليست اللغات أسماء عقلاء فحسب

﴿٨﴾ الاشارة في هؤلاء دليل على أن المسميات المتحدى بها كانت موجودة بالفعل والمسميات اللغوية لم تكن وجدت كلها بل صفة التكوين والخلق لاتزال تبرز للناس مخلوقات جديدة

﴿٩﴾ أبو بكر القاضى يقول أن عمدة التوقيفيين الاية : وهذا لاحجة فيه

﴿١٠﴾ امام الحرمين يقول ان الكل جائز والاية ليس فيها دليل على أحد الجائزين

(١١) الغزالى: يقول يحتمل أن تكون هذه الاسماء مصطلحا عليها قبل أن يخلق الله آدم . وأما حديثهم. فهو معارض بما رأيت من الاثار القائلة انها أسماء الملائكة أو الذرية أو غير ذلك . ينضم لذلك عدم شهرة في رجاله. ويقوى الشك فى الحديث اشتماله على كلمة الفسوة والفسيه فما كان معلم العالم الادب لتنفرج شفتاه صلى الله عليه وسلم عن مثل هاته الألفاظ ولست تعوزه فى حديثه صلى الله عليه وسلم تلك الكلمة مثلا يضرب به الحقارة وأمادورهم . وماتمسكوا به من أن الاصطلاح يتطلب آخر مثله فحسبى ان أحيلهم على الصبي يتعلم لغة والده دون أن يتوقف ذلك على

اصطلاح أو اصطلاحات أخري .

الى هنا نرى أن دعوى الخصوم أضحت كثيبا من الرمل تعاورته السيول من كل جانب ففرقته أيدى سبا . ولكن انهيار مدعى الخصم لايستلزم صحة ماندعوا اليه . وانهيار كثيبه لايحتم قيام كثيبنافلا تزال دعوى القائلين بالاصطلاح شاغرة تتطلب الدلائل والبراهين . وهاهى ذي عشرات بلغت من القوة حداليقين

١ قوله تعالى (وماأرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم)

الست ترى معي أن هؤلاء القوم المبعوث اليهم الرسول يجب أن تكون لهم لغة قبل أن يرسل اليهم ليستطيع أن يتفاهم معهم وأن يبلغهم بها رسالة ربه . ويجب لذلك أن يكون طريق تلك اللغةغير طريق الوحى والتوقيف

٢ تلك القبائل الضاربة في الصحاري الواسعة وجزر المحيطات الفسيحة . من أى طريق جاءها الوحى باللغة وهي لم تبلغها دعوة نبى ؟

٣ لقد ماتت الفاظ من اللغة ولو كانت توفيقية لنزل ناسخ لرفضها

٤ عدة لغات العالم الآن تناهز أربعة الآف ولم يرو أحدمن أهلها أن نبيا نزل من السماء بلغته . ولوكان من ذلك شيء لحرص الناس على روايته وأذاعته لانه يشرفهم ويرفعهم مكانا عليا

٥ قياسا على ميلاد بعض اللغات وفناء البعض الآخر نجزم جزما لاشك فيه أن ستوجد لغات أخرى . فهل ستنزل الملائكة على بعض الناس فيما بعد ؟ ذلك ماليس له من سبيل

٦ نسمع الآن من علماء اللغة نداء صارخا بان نضع مفردات للمصطلحات الحديثة . وذلك إجماع لغوى من أهل العصر على أن اللغات اصطلاحية

٧ وضع الشيخ السكندرى أسماء ووضعت مجلة الهلال والمقتطف . بل وضع مدير حديقة الحيوانات أسماء عربية لبعض الحيوانات الغريبة عن بلادنا . وكم يضع كبار التجار ورؤساء المستوردين من الخارج أسماء عربية لما يستحضرونه من بلاد الاجانب يضعونها وتذاع عنهم وتندمج فى اللغة العامية فهل ذلك طريقه التوقيف أيضا ؟

٨ للمتحاربين أثناء المعارك لغة سريه . بل وللعشاق لغة يتراسلون بها تواريا عن النظارة فهل ذلك من التوقيف أيضا ؟

٩ وضع علماء التوحيد كلمة الدور ووضع علماء النحو كلمات الفاعل والمفعول والصفة المشبهه على مصطلحاتهم الخاصة . ووضع علماء الاصول كلمتى النقض والكسر لتخلف الحكم عن العلة ولم يدع أحد منهم أن ذلك طريقه وحى أو ايهام أو كرامة

١٠ لوكانت توقيفية لوجبت المحافظة على تلك المفردات فى كل لغات العالم من شرقية وغربية ولرأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون ذلك ويعانونه ولم نسمع •

١١ الاشتراك فى اللغة وخصوصا نوع التضاد منه يعتبر عيبا فيها لانه يدعو الى التردد وخفاء المراد وما كان من عند الله فلا عيب فيه

١٢ الدافع الي الاشتراك ضيق المفردات والله لايعجزه شيء

١٣ لو كانت توقيفيه لما كان لامرى القيس فضل في تقييده الاوابد ولالقس بن ساعدة فضل فى اختراعه (أمابعد)

٢٤ لوكانت توقيفية لحرم الاختراع فى الاساليب فى الاستعارات والكنايات.

١٥ المجمع اللغوى المصرى سيجتمع انشاء الله عما قريب لوضع مفردات جديدة . ولا يتلاءم مع مشروعه القول بالتوقيف (وهذا ما دعانا لتأليف هذا الكتاب)

١٦ لغة الاسبرانتو التى وضعها فى العصر الحديث بعض الذين يريدون جمع العالم على لغة واحدة . . هل ذلك توقيف أيضا ؟

الى هنا نمسك القلم عن السير في البراهين . ولو شئنا أن نطلق له العنان لضاقت بنا الصفحات . ولكننا قبل أن نودع ذلك الباب نبين

المطلع أن أبن دقيق العيد يذكر ما نسب للأشعرى من القول بالتوقيف ويبرهن على رأيه بأنه لو كان ذاك رأيه لنقله القاضى وغيره من محققي كلامه . فها نذا قد أثلج صدرى . واطمأننت لما رأيت. وما أجهدت نفسى فى البرهنة عليه

﴿ كيف نشأت اللغات ؟ ﴾

جرت سنة الله فى خلقه ألا يخلق شيئاً طفرة . بل كانت الحكمة الالهيـة تتبـع طريق التدرج فى الخلق والابداع . فأعلمنا أنه خلق السموات والارض فى ستة أيام ولو شاء أن يخلقها كلمح البصر لفعل . ولقد عهدناه يخلق الانسان مضغة فعلقه فطفلا وكان قادراعلى أن يخلقه بشراً سوياً . ولكنها الحكمة الالهية تتجنب الطفرة فى كل شىء لتعلمنا كيف نتحـلى بالصبر والاناة . ولا نأخـذ أنفسنا بالقهر و الغلبـة . وأخرى لئـلا نفاجأ بالمخـلوق الجـديد فلا تأنس قلوبنا اليه وننفر منه ونكون حرباً عليـه فيهلك ونهلك وفى ذلك خراب العالم وفناؤه . تلك سنة جرت فى عالم النبات ينشأ بذراً ترعاه قطرات الماء فتنساب جذوره فى الثرى ثم تبسق سيقانه وأوراقه وأغصانه فيستوى دوحا وارف الظلال . وفي عالم الجماد تتحجر الفحمة ولا تزال تصهرها حرارة الارض وتتفاعل مع عوامل التكوين على مر السنين والاعوام فاذا بتلك الفحمة

المسودة فى زوايا المناجم ماسة مشرقة تزين الصدور والنحور . وحيثما تلفتنا وأني توجهنا نرى التدرج فى التكوين طريقاً لاعوج فيه ولا أمتا. واللغة كائن حي بل كائن له قيمته وله خطره . ولقد بينا فى ثنايا هذا الكتيب أثرها فى الاجتماع وفى التفكير . فعلى ضوء تلك النظرية وأشعة هذا الرأى نبحث نشأة اللغات وتتبين كيف استطاع الانسان أن يتفاهم مع اخيه الانسان . لننظر للحيوان الاعجم وللطفل ولتلك القبائل الضاربة فى الادغال والغابات والصحارى وجزر المحيطات ثم نسير رويدا رويدا حتى نبلغ بها القمة التى بلغتها . والمكانة التى شغلتها

« لغة الحيوان »

فالحيوان نتساءل بازائه هل له سبيل يتفهم بها مع أبناء جنسه ؟ الجواب صريح في الحيوان قد يستطيع فى بعض الاحايين أن يعبر عما يكنه ضميره . وقد يفهم زميله ما دار بخلده . ولا نستطيع أن نسمى ذلك لغة فقد لوى الاصطلاح أعناقنا بتعريف اللغة بأنها ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . ولغة الحيوان ليست من اللفظ فى شىء . وهل نستطيع أن نسمي ذلك الصوت الساذج الذى ينساب من فم الحيوان لفظا ما دام الاصطلاح كم أفواهنا مرة أخرى بأن اللفظ هو اسم لصوت ذى مقاطع ؟ لهؤلاء المصطلحين رأيهم فانما يعرفون لغة الانسان ولفظ

الانسان . أما نحن فحين نتكلم عن لغة الحيوان انما نبحث عن سبل التفاهم في أى ثوب أسفرت ومن أى ناحيه أشرقت . نتخذها جسرا نعبر عليه لنعرف لغة الانسان . . وحينما نرسل تلك النظرة الفاحصة للحيوان نرى بعض فصائله قد يتفاهم مع الاخر . ولولا سعه فى أفواهها وضعف فى عضلات السنتها وصغر في مخها بالنسبه لاجسامها لتساوت مع الانسان فيما يمتاز به عنها وهو المنطق . بيد أنها وإن عدمت المنطق فلم تعدم سبلا أخرى للتفاهم نحن لا نعلمها وإن علمنا آثارها . فهذ (اللورد إفبرى) الانجليزى وأحد اللذين قضوا شطراً من العمر فى البحث عن الحيوان وطباعه يحدثنا عن النمل حديثا طليا بأنه وضع ذبابة كبيرة فى طريق نملة فعالجت حملها ولما لم تفلح أنسابت مسرعة الى قريتها ثم عادت ومعها عشرات من رفيقاتها مزقن اديم الذبابة كل ممزق . ولقد رأيت بعينى رأسي ذئبا يعالج جثة هامدة بين الحقول . وكأنه كبر عليه أن يحرم أخوانه من تلك الغنيمة الباردة فعوى فجاوبته الذئاب ثم أسرعن اليه من كل حدب وصوب وما هى إلا دقائق حتى تحولت الجثة الى بطون الذئاب . أللهم الا عظاما مفككة الاوصال أستعصت على الانياب . وهل غناء العصافير . ونعيق الغربان الا اغراء للانثى أو تشوقا للطعام ؟ والطعام والانثى هما كل أغراض الحيوان وأقصى أمانيه في الحياة وقد استطاع

أن ينبه لها . فكانت لغة وافية بما يخالج نفسه وما يدور بخلده

﴿ لغة الطفل وما يخترعه من أساليب ولفظ الأمومة فى كل لغة ﴾

والطفل . يصرخ اذا عضه الجوع فتهرع اليه أمه وهو يعلم أن بكاءه يجذبها اليه فيتخذه لذلك وسيلة ناجعة . ولغة مفهمة . ولا يزال ذلك شأنه حتى اذا اتم أيام الرضاع . وألحت عليه امعاؤه ثم أراد التعبير عما فى نفسه فلا يرى سبيلا لذلك غير حكاية ازدراد الطعام فيقول (مم) وظريف أن نذكر هنا وصية أحد الطفيليين اذ قال لابنه وهو يعظه يا بنى لا تتكلم على الطعام الا بلفظة نعم فانها مضغة (ونعم ومم جرسهما واحد) يبدؤ الطفل لغته بتلك الكلمة الموسيقية الوقع على أسماع أمه ولا يزال يرددها حتى اذا تطلب أمه لغرض غير الطعام والشراب لم تكن علقت في نفسه كلمة غيرها فيناديها بها أو بما يقاربها فيقول . . (أم) ولما كانت تلك الكلمة استجابة لداعية الطبيعة كان لفظ الام فى جميع لغات العالم آريها وطورانيها وساميها واحد اللهم الا تحوير بسيط لا يوسع شقة الخلاف بينها فهو فى العربية (أم) وفى الانجليزيه مذر Mother وبالفرنسيه مير Mére وفى اللاتينيه Matar وفى اليونانيه Mitir وفى السنسكريتية لغة الهنود Matir وفى لغة التبت (يم) وفي الحبشية الامحارية أو الجعزية (يم) أيضاً . وفي الصينية (مو) وفي القبطيه

المصريه (ماو) . . واذا اتسعت دائرة معارف الطفل تلقف كلمة من والديه وأخرى من الاطفال الآخرين . ثم تراه فى خلال ذلك لا يفرق بين ضمير المتكلم والمخاطب . ولا يعرف صيغة الجمع من صيغة المفرد ودونك مثلا ناطقة بما نتحدث عنه . أمرت أم طفلها أن يذهب مع والده الى الحقل فقال له الطفل (أمك بتقولك خدنى معك) يريد أن أمى تقول لك . وذلك أن الناس دائما يخاطبون الطفل بأمك فظن أنها كذلك فى كل استعمالاتها . وتحدثت طفلة عن إناث من الاوزفقالت (دول انتيه) تريد اناثا . وكذلك كان شأن اللغة فى فجرها لا تفرق بين المفرد والجمع ولا تعرف لكل منهما صيغة خاصة بل اللغة الصينية حتى فى ذلك العهد الذي ارتفع فيه منار الحضارة لا تفرق بين الاسم والفعل والحرف وكل ذلك يتميز بالقرائن والسياق وتركيب الاسلوب . وأن تعجب فعجب أمر تلك اللغة أكثر لغات العالم عددا . يتكلم بهاز هاء ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ خمسماية مليون نفس وأهلها من السابقين الى الحضارة . ولكن يذهب عجبك إذا عرفت أن أساليب (كون فوشيوس) مقدسها العظيم أتتها فى فجر حياتها فحافظت على نصوصه وتعاليمه وأساليبه

ثم نعود الى الطفل وما يخرجه خياله من صيغ الجموع والضمائر . ولولا أن ينهاه أهله لاستمر في شوطه وربما قلده غيره فكانت لهجة ثم لغة قائمة

بنفسها. والحديث عن الطفولة وما تخترعه من أساليب لغوية حلو ترديده ثم هو واسع الجنبات . ولكنا نمر عليه مر الكرام . فكفى من القلادة ما أحاط بالعنق. وكفى من حديث الطفولة ما نكتشف على ضوئه شيئا من نشأة اللغات

﴿ لغات القبائل المتأخرة فى أواسط أفريقيا واستراليا وأمريكا ﴾

﴿ وأمثلة كثيرة من عباراتها بلغاتها ﴾

والطفولة في العمر كالطفولة في الحضارة والاجتماع . . فتلك قبائل الهنود الحمر بأمريكا . وهاته قبائل السنغال التى تمثل لنا حياتهم الفطرة الاولى للانسانية . وكثير غير هؤلاء وأولئك من اخوانهم فى البساطة والسذاجة تمثل لنا أساليبهم في أحاديثهم ومحاوراتهم نشأة اللغاة في العصور الاولى. فلغاتهم قليلة الحروف . قليلة عدد الكلمات مجردة من علامات التعريف والتنكير والتذكير والتأنيث الى نهاية تلك الخواص التى تتسم بها اللغات الراقية . وما كان ذلك في نفسه غريب أو مستبعد فسنبين بعد صفحات تأتى أن كثرة الحروف فى الكلمة الواحدة دليل على أنها مركبة من معان متعددة . وحياة هؤلاء البسطاء تتجافي عن التعقيد والتركيب . وتعريف الكلمة أو تنكيرها معنى آخر غير المعنى الاصلى فالكلمة المعرفة مركبة من المعنى الاصلى ومعنى آخر هو انه معروف

مشهور . والتركيب لا تنهض به عقليـة هؤلاء الاقوام الذين تحكمهم عاداتهم الفطرية وما جبلوا عليه من القناعة بالاوليات فكان محتوما عليهم أن تخلو لغاتهم من كلمات القوانين ومصطلحاتها . ومن ألفاظ المحامين والدوسيهات والمكاتب والجلسات ومواد القانون الجنائي والمدنى والتجارى . ثم هم فيما بين ذلك يعيشون على الصيد والقنص . ويحيون على ما تتيحه لهم الصدفة . وما تهبه المقادير دون سعى أو جهاد . ينام أحدهم ليله ونهاره فان اتاحت له الفرصة بظبي تعس حظه وضل سبيله فذلك . وإلا طوى الايام والليالى نخات لغتهم من أسماء الزراعة وآلاتها والنباتات وتعاليمها من كيفية السقى والزرع والحصاد والجنى . فها أنت تراهم عدموا هذين القاموسين الواسعين قاموس الزراعة والقانون . ثم هم بعد ذلك راضوا أنفسهم على شظف العيش وخشونة الحياة . وقنعوا بما يستر العورة . ومنهم من ترك العورة عارية . وترى أحدهم يستعمل جلد حيوان تصيده وقاء من الرمضاء . ومجنا من الزمهرير . وقد يسد به باب الكهف الذى يأويه . أو يتدثر به حينما يأخذ الكرى بمعاقد جفنيه وعساه إن وجد ما يقتات به فى طريقه أن يحمله في ذلك الجلد . وأن يستبقيه في ثناياه اذا عاد الى مقره . وعساه أن يتخذه درعا يدفع به أظافر الوحوش والحيوانات المفترسة . وكثيرا ما تعترض هؤلاء المساكين .

ولعله يفترش ذلك الجلد يقي جسمه وخز الحصى وتضاريس الصخور تعددت الاستعمالات والجلد واحد له كلمة واحدة تدل عليه. واسم واحد يغني عنه. ولو كان ممن يسكنون القاهرة أو لندن أو باريس أو نيويورك وكان من السراة المترفين لكان في منزله من الاثاث والرياش آلاف الاسماء من سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة. ولكان له من أنواع الملابس أغطية الرأس والعنق والجسم والرجل أسماء يكثر عددها: ولرأى من أسماء الادراج والصناديق والعربات والسيارات ومن أدوات الحفظ والحمل ما تضعف ذاكرته أمام وعيه واستذكاره: فتأمل معي قليلا لتدرك كيف أغنت الجلدة وحدها هولاء المسكين عن آلاف غيرها من المسميات: ولترسم أمام ناظريك صورة رائعة عن فقر لغة هؤلاء من المفردات لانهم حرموا من تلك الميزات فما كان غريبا بعد ذلك كله أن تخلو لغتهم من علامات التعريف والتنكير والمفرد والجمع وأن تقل مفرداتهم حتى لا تعدو المائة من الكلمات وان لا تفرق لغتهم بين الاسم والفعل والحرف. وأن تفعم الى حد كبير بالاشارة اليدوية والرأسية والعينية. فهؤلاء قبائل أوستراليا ليس لديهم من أسماء الاعداد غير كلمتين اثنتين هما (نتات) بمعنى واحد و (نايس) بمعنى اثنين. فاذا أحوجهم العدد الى الثلاثة قالوا (نتات نايس) أو الى

الاربعه عبروا (بنايس نايس) أو الخمسة نطقوا (بنتات نايس نايس) أو الى الستة لجأوا الي (نايس نايس نايس) ثم ضاق تفكيرهم عن السبعه وقصر وعيهم عنها فلجأوا الى الابهام والغموض وعبروا بكثير كثير . . وهؤلاء قبائل الهنود الحمر على ضفاف نهر اورينوكو بامريكا الشمالية يعبرون عن الخمسة باليد استعيرت للخمسه لانها تحتوى أصابع خمس . وهى ألزم للانسان من ظله فهى أقرب شيء يعبر به واسمها أهون شيء يستعيره لما يريد إن كان ثمة ما يسيغ ذلك التجوز ويبيح هذا النقل . وهاته اللغة الصينية تكاد تكون كلماتها مركبة كل منها من مقطع واحد . ولقد كنا فى العام الماضى وفي هذا العام ايضا اذ نقرأ أخبار حرب الصين واليابان نذوق الامرين من نطق أسماء مواقع الصين وأعلام قوادها لأنها توشك أن تكون مقاطع ثنائية متراصة . فحيثما تتلفت تجابهك فى جمهرة تلك اللغة امثال هاته الجملة (كوتشى شى جن سى) وترجمتها الحرفية كلب خنزير أكل رجل طعام . فتأمل تلك الاسماء الخمسة لتعلم أن كل اسم مركب من مقطع واحد وانظر ناحية أخرى فى تلك اللغة هى أنها لاتفرق بين الاسم والفعل والحرف و تعرف ذلك موكول الي نسيج الأساوب . وسياق الحديث . فاذا جالت بخاطر أحدهم تلك العبارة (فى المماسكة) لن يفكر في حرف جر وأنى له ذلك

ولغته منه خاوية . بل تراه يأتيك باسم يدل على تلك الظرفية ولو من طريق مجازى كـكلمة وسط مثلا ثم يقول لك (كوشنغ) وترجمتها الحرفية وسط مملكة مستغفنيا (بوسط) عن (فى) لتقاربهما في المعنى لأن الظرف يتوسط مااحتواه . شأنهم في ذلك شأن قبائل المندنجو سكان أواسط أفريقيا إذا أعوزتهم (فى) الظرفية ولم يجدوها ولن يجدوها في لغتهم أتوك بـكلمة تدل على ذلك المعنى عن طريق الاستعارة فقالوا (كونوا) بمعنى بطن . وإن أعوزتهم (على) الدالة على الاستعلاء أستعاضوا عنها بكلمة (كنع) بمعنى عنق . فبدلا أن يحدثوك عن جملة . ضع القلم في الدواة واكتب على السبورة على نحو أسلوب اللغات الراقية قالوا (ضع القلم بطن الدواة واكتب عنق السبورة) ولما كان العنق من الاعضاء العاليـة والبطن تتوسط الجوف استعملوهما فى تلك العبارتين لعلاقة المشابهة . لـكنها فى لغتهم حقائق لا يقصدون التشبيه أثناء الحديث ولا يدور بخلدهم ذلك . غير أن المجاز هو المكون الاهم للغات . وبعد صفحات ستنشب بيننا وبين هـذا المجاز معركة يشتد أوارها لنكشف عنه الغطاء ونظهر ما له من تلك الاهمية وكما خات لغاتهم من كل ذلك تراها أنتحت ناحية طبيعية فى النطق وفى جرس الحروف ونغماتها. تكاد اذ تنصت لأحاديثهم تسمع همهمة ونمنمة. وتخال أنك أمام طيور تتناغم

لا أناسي يتطارحون أساليب الحديث الطلى . وما كان ذلك بدعا منهم فهم أبناء الطبيعة يصوتون كما تصوت . وينطقون كما تسمع آذانهم من أصوات الهواء والماء ومن أهازيج الحيوان . بعد هذا كله نظن أننا قد رسمنا صورة رائعة عن أساليب تلك القبائل فى محاوراتها ومخاطباتها لنعرض مرآة مصقولة تنعكس عليها نشأة اللغات . تلك التى بدأت اشارية فاصوات ساذجة تحكى أصوات الطبيعة ثم لازالت بها عوامل الرقى والنمو تبعث فيها الرفعة والنهوض حتى أصبحت كما نرى . كلمات تبلغ مئات الألوف . وقواعد فصلت تفصيلا

﴿ بدء التفاهم بالاشارة وأسباب حلول الألفاظ محلها ﴾

والآن فلنتحدث عن الاشارة . ولنتبين كيف بدأ الناس بها يتفاهمون . وبحث ذلك شأنه يرجع بأذهاننا الى طبيعة الوجود وسنة الخلق تلك السنة التى أوجدت فى كل كائن نام (ولا أقول حى فحسب) قوى يدفع بها عن نفسه كل ما يتهددها من أخطار . فهذا هو النبات اذا جرح لحاؤه . تقطر ماؤه ثم تجمد حوالى الجرح فوقاه الهواء والشمس وحال بينه وبين الهوام والجراثيم . ننظر تقاطر الماء منه فنعلم أنه جريح يدفع عن نفسه . ويدركه البستانى بقطعة من طين لازب يضمد بها ذلك الجرح الأليم . وننظر الحيوان يقف شعره . أو تنتفخ أوداجه . أو

يكشر عن أنيابه . أو تغور عيناه فنقرأ خلال تلك الصفحة ما وراءها من اضطراب نفسي بدت آثاره على الجلد فتقاص . وعلى الفك فارتعد وعلى العين فاذا هي تدور ناظرة نظر المغشى عليه من الموت . أشارات فطرية وتقلصات اضطرارية . وان شئت فقل هي استعداد الجسم للدفاع عن نفسه هجوماً أو هرباً . ونظرات حائرة ترتقب سبيل النجاة . ثم هي في الوقت نفسه مرآة لم تعرف النفاق والمواربه تريك تلك الثورة الحائرة فى نفس الحيوان . وتشير اليك أن وراء الأكمة ما وراءها . وقد عرف الانسان وأهدته تجاربه أن تغير عضلاته . وتقاص جلده يدل على ما في نفسه فعلم أن ذلك التغيير في وضع الأعضاء كمد اليد تارة . وثنيها تارة أخرى . واهتزاز الرأس علواً وانخفاضاً . ويميناً ويساراً يصلح أن يكون أداة تفاهم يعبر بها عما يجول بخاطره . ويدل بها عما يعتلج في نفسه فاستعملها . وكانت باكورة التفاهم البشرى وفجر الترابط الانسانى . لهذا بدأت الاشارة ساذجة ككل البواكير اشارة المحسوسات . وتقليد لما يراد التحدث عنه . أو رسمه باليد . ثم تعقدت وتعددت وكبرت على المحسوسات فعبرت عن المعنويات . وها هى اليوم تستعمل للتحية والتعظيم برفع اليدين للجبين ورفع القبعة عن الرأس . ولها القدح المعلى فى المقابلات والمصافحات . وان خطبت خات عنها فهى فاتره ولو أنك رأيت

موسوليني أو رأيت صورته وهو يخطب . وشاهدت إشاراته وحركاته لحكمت بانها سبب مهم فى تأثيره على السامعين . وأنها سر نبوغه واعتلائه كرسي وزارة ر ما العتيد. والتفاف الملايين من ذوى القمصان السوداء حوله. وتكوين (فاشيست) فى كل انحاء العالم

وتأثيرها نتلمسه في تلك القضية التي يعترف بها الناس جميعا وهى. أن المرء يتأثر مما يرى أضعاف ما يتأثر مما يسمع . فهبك حدثتنى عن الميدان والحرب وأوتيت من البلاغة أروع الأساليب . أيكون ذلك أكثر أثراً فى نفسى من رؤية المعامع والدماء الجارية كالأنهار من حولى ؟ لن يتساويا. وكم منا من يستطيع رؤية عملية جراحية فى جسم عزيز لديه؟ قل من يستطيع ذلك .فى حين لم نر إنسانا أغمي عليه من حديث عملية جراحية أو نحوها . والتاريخ يحدثنا عن أنطنيوس حينما وقف خطيبا يستنهض الرومان أن تثأر من بروتس وعصابته الذين خضبوا أيديهم بدم القيصر القتيل. ولما ضاعت كادراج الرياح بلاغته عمد الى جثمان القتيل فكشف عنه غطاءه ورأى الرومان الجراح والدماء فثارت حميتهم لما رأوه لا لما سمعوه . واستجابو خطيبهم لمنظر الدماء لا لخطابته . لهذا كله تطاول بالاشارة بالعمر . وها هى الآن تشارك الالفاظ في الدلالة بعد أن انفردت بها أحقابا طويلة في العصور الخاليات . غير أن الاشارة

محدودة الدلالة. وبيانها لا يعد والمحسوسات . تتطلب الى حد بعيد حضور المشار اليه بالذات ليمكن لفت النظر اليه . وأن يكون سهلا خاليا من التعقيد والتركيب : كما تتطلب ضوءا ساطعا بواسطته يتمكن المخاطب من رؤية الاشارة والمشار اليه ليتبين الدلالة ويفهم الغرض: وان تمت على المخاطب دلالة الاشارة وتحرجت أمامه سبل الفهم لأحد هاتيك الحوائل تباطأ عن الاستجابة وتغاضى عن الداعى: فيتألم المشير وتأخذه نوبة الغضب فيصيح متأثراً مما حاك في صدره . وتلك طبيعة الانسان والحيوان يصبح ويئن اذا ألم به ما يثير فيه الصياح والأنين : فيشير ويصيح : ثم يكرر الصياح والاشارة : فيجتمع أمام المخاطب شيئان اشارة وصياح : وذلك أدعى لفهمه : وأقرب لاستجابته : وبذلك ينضم الصوت للاشارة : ويتعاون اللسان مع اليد في الافادة وقد يفهم المخاطب غرض المتكلم فيستجيب دعاءه ونداءه : وهو بدوره يعلم أن الاشارة وحدها لم تجده نفعا . وأن صوته الذى فاه به ساعده على بيان غرضه : فيعتاد ذلك فى محاورته : ويعتاد ذلك منه مخاطبه . وهنا تبدأ دولة الألفاظ فى التكوين . وتأخذ شمسها في البزوغ . وقد كان محتوما على شمس الالفاظ أن تبقى طيلة الدهر خافتة لا تشع ولا تضي لو أن الدهر كان نهاراً كله : فالليل ستار يحجب العين عن الابصار فتنعدم قيمة

الاشارة فى الدلالة . ويضطر الانسان أن يستعمل صوته فى ايصال غرضه. والصوت طريقه الهواء وهو لا يحجبه ليل . فالليل وظلامه من أهم العوامل فى وجود اللغــــة الصوتية : وهؤلاء القبائل المتأخرة لا يستطيعون الحديث فى ظلام الليل لان الاشارة لاتزال صرحها عاليا في لغاتهم والظلام عدوها اللدود . وغياب المشار اليه معول آخر يجعلها ضعيفة الدلالة . وكونه معنويا غير محس كثير التعقيد والتركيب معول ثالث فى هدمها والقضاء عليها: فتضافرت تلك الاعداء الثلاثة الظلام والمعنوية والبعد على أضعاف سلطتها: واقامة صرح الألفاظ

《 بدء التفاهم اللفظى . وأمثلة من قديم اللغات وحديثها 》

وهاهى دولة الالفاظ بدأت وليدة ساذجة بسيطة : وبدأ الناس يعبرون عما يجول فى خواطرهم بالاصوات الطبيعية . يئنون اذا ألمت بهم الملمات . ويصيحون اذا دهمتهم المفزعات . فتكون تلك الانات والصيحات دليلا على ما وراءها من عوامل الآلام النفسية . وتلك طبيعة الانسان والحيوان . يؤثر الالم على الاعصاب فتضطرب . ومن أرقها احساساً أعصاب الرئتين تضطرب فيهتاج ذلك المنفاح الانسانى فيقذف الهواء بقوة فاذا به أنات وزفرات . والالم يسرع فى دورة الدم يفرغها من الجسم الى القلب . ومن القلب الى الرئة فتمتلىء به ثم تلتقط

كمية من الهواء وافرة لتخرج كربون ذلك الاحتراق الداخلي السريع ثم يخرج الهواء بقوة محتكا بالاوتار الصوتية فتصدح بما يحول انتباه المرء عما يعتلج فؤاده : وصدحها أنات وزفرات. رأى الانسان ان تلك الحالة النفسية تلفت النظر فاستعملها اذا أراد أن يعبر عنها. ولو أنك رجعت بخيالك الى العصر الحجرى أو العصر الجليدى ورأيت أنسانا يدث لاخيه ألما يقض مضجعه فلن تراه يزيد عن (آه) ثم يشير الى مكان الالم . مثله كمثل الطفل يؤلمه ذراعه فيهرع الى أمه حاكيا صوت التألم في بعض أحايينه قائلا (واوه) ثم تمر آلاف السنين على بنى الانسان وتلك حالتهم حتى اذا نضج العقل الانساني بعض الشيء ودبت فيهم روح الاجتماع : واقتطع أحدهم حجراً يجعله واحدة الاثافى لقدر ينضج عليه طعامه وسمع صوت ذلك القطع ثم ضمه حفل من الناس وأراد أن يحدثهم بما سمع من صوت ذلك القطع فماذا هو قائل ؟ وبأى سبيل يعلم القوم بما سمع ؟ الطريق الطبيعي هو حكاية صوت ذلك القطع نفسه فيقول (قط) . أما العين من قطع فذات معنى آخر غير القطع المجرد : وسنتحدث عن ذلك بعد صفحات ونضرب له الامثال : ولو أن المحدث أراد غير حكاية ذلك الصوت لضاقت مفردات اللغة عن اسعافه . ويئس القوم من الفهم عنه فطبيعة القائل . وطبيعة اللغة فى تلك العصور العريقة في القدم . وطبيعة

التفهيم هى حكاية صوت القطع نفسه فكانت الكلمة (قط) علامة تحضر الى الذهن صوت تفرق أوصال المقطوع . وبرهان صدق على أنها استجابة لنداء الطبيعة أنها فى كل لغة من لغات العالم قديمها وحديثها ترمز لذلك وتدل عليه . فهى في العربية قطع وفي الانجليزيه Cut كت . وفي الفرنسيه Casser كسيه وفى الصينية (كت) وفى الهيروغليفيه (خت) والكاف والخاء ينبتان متجاورين من أعلى الفم . فما أسهل ما يتزاوران وتحل إحداهما دار الأخرى . على أن (خت) الهيروغليفيه تحكي بنفسها صوت القطع أيضا . كذلك الصلصلة هى تحكى تماما ذلك الرنين الذى تسمعه الاذان من قرع الاجراس ولو كان الجرس ناطقا لما زادت لغته عن صل صل صل . لذلك أنت ترى اسم ذلك الصوت فى العربية صلصلة كما هو فى الفرنسيه Sonner صنيه ؛ ثم فى الانجليزية Ring رنج . ورنج هذه تحكى لنا بوضوح رنين الجرس . بيد أننا نلمح تفاوتا بين صلصلة وصنيه الفرنسية من ناحية ورنج الانجليزيه من ناحية أخرى . يتبخر هباء ما نلمحه من ذلك التفاوت إذا علمنا أن الاجراس تتفاوت كبرا وصغرا . وأن صغيرها يشبه رنينه الكلمتين الفرنسية والعربية . وكبيرها يمثل طنينه الكلمة الانجليزية فأنك لو تأملت جرسها لتلمست فيه صوت الاجراس الضخمة بينما الصلصلة وصنيه يعطيانك صورة طبق

الأصل من الأصوات الرقيقه التى تنبعث من الأجراس الصغيرة فكانتا للوسوسة اقرب . وبها الشبه · سمع كل من الفريقين نوعا من الاجراس فحاكاه . ولئن شئنا تتبع ذلك فى كل لغة من لغات العالم . وفى كل أسلوب من أساليب الناس لوجدناه أضوأ من الشمس تتوسط كبد السماء في يوم صائف على صحارى خط الاستواء . وعلى أن أطلب منك أن تمسك بيدك قلما وتكتب به متحاملا يسيرا ثم ارهف أذنيك واستمع وتذكر كلمة (صرير) وقارن بينهما فلن تراك الا امام صورة طبق الأصل . أو أمام الحسناء ومرآتها . صورة واحدة تجلت فى ناحيتين . أو أن تجلس على ضفاف نهر تجاه قنطرة تحتبس الماء وتتركه ينساب وئيدا وئيدا بصوت طبيعى رقيق. ثم ارعه انتباهك ويقظتك وتذكر أن آباءك الأقدمين سموا ذلك الصوت (خريرا) . وقارن بين الاسم والمسمي لعلك تعترف بالمناسبة بينهما . وأن اباءك الاولين لم يفرطوا فى اختيار لفظ يحكى المعنى ويصوره بريشه رسام ماهر . وتقتنع بأن منشأ اللغات حكاية الاصوات .

وما بالى أسوق اليك البراهين من كل مشرق ومغرب وهذا هو الخليل بن أحمد أكبر أئمة اللغة ينبهنا لتلك المناسبة فيقول . كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة فقالوا صر . وفى صوت البازى تقطيعا فقالوا صرصر . وذلك سيبويه . وأنت تدرى من سيبويه . امام النحو

الأكبر يضم صوته للخليل فى تلك المناسبة على مارواه عنهما ابن جنى في خصائصه . وابن جني بدوره يعقد فصلا لمناسبة الالفاظ للمعاني ثم يقول فى ثناياه مشيرا لتلك المناسبة . هذا موضع شريف . وباب واسع جدا لايمكن استقصاؤه . وأن ننس لا ننس ما رواه السيوطى فى كتابه المزهر من أن أهل اللغة والعربية يكادون يطبقون على ثبوت مناسبة الالفاظ للمعانى . لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد الصيمرى أن عبادا يراها موجبة ذاتية بخلافهم . وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الاصلح في أفعال الله تعالى وجوبا . وأهل السنة يقولون أنه يفعل الاصلح لكن فضلا منه ومنا ولو شاء لم يفعله . انتهى كلام السيوطي بحروفه تقريبا . فتأمل ماتلاه علينا من اجماع علماء العربية على تلك المناسبة بين الالفاظ والمعانى والتفرقة بين رأيهم وبين رأى عباد من وجوب المناسبة . أو انهاموجودة غير واجبة ثم اطرب لقياسه ذلك الرأى برأى المعتزلة فى الاصلح وأن أهل السنة يقولون بالاصلح أيضا فى كل أفعاله تعالى بيد أنه عن اختيار منه وفضل .. وهذامانادى به من تلك المناسبة . ولا يدور بخلد عاقل أن يرى وجوب تلك المناسبة . فقد يتأتى أن يعبر الانسان بمالايناسب ماأراده من المعنى ويتلق الناس تلك الـكلمة بالقبول فتنتشر بينهم وتشيع فى أوساطهم . وتحتل قواميس

لغاتهم . غير أن ذلك فى القليل النادر . فدعنى اتحدث إليك عن تلك المناسبة فى الاغلبية الساحقة وعن الارتجال فى القليل الذى لايكاد يوجد . لان قانون تداعى المعانى الذى يجعل الخواطر المتلازمة تتوارد للذهن أخذا بعضها بحجز بعض سبب فى نهاية الاهمية يلجىء المرء لنقل أحد المتناسبين للاخر بقدر مايبعده عن الارتجال . فأنت ترى الانسان فى العهد الاول اذا أراد أن يعبر عن المعنويات لجأ الى ماعنده من الفاظ المحسوسات فأخذ منها ورمز به لذلك المعنوى لما قد يكون بينهما من رابطة أو صلة كلفظة (شهر) كانت في السامية الاولى اسما للقمر بدليل أن القمر فى الشقيقة السوريانية اسمه (سهر) نقله العرب الى تلك الايام المعدودات لانهم يحتسبون شهورهم بالاهلة التى ترى في صحرائهم مشرقة ناصعة تطل عليهم من سمائهم فى مواعيد منضبطة

(تتركب الكلمة من مقطع واحد فى الاغلبيه الساحقة)
(من الكلمات والسر فى زيادة الكلمة عنه وأثر النحت في ذلك. وامثلة)
(من لغات متعددة)

تراءى لك من خلال ماذكرناه في الكلام السابق أن اللغات حاكت أصوات الطبيعة فكانت الفاظا ساذجة هى أقرب مايكون لتلك الاصوات التى تسمعها من حركات الاجواء.. ومن اصطفاق الهواء

بالاشجار والصخور . غير أن الرق الاجتماعي : وتعدد مطالب الانسان تدفعه الي ترديد صوته وتكريره . وتكرير الصوت وترديده تعدد للحروف التي هي أثر ذلك الصوت المردد . وكأني بالانسان وهو يامر أخاه أو يرجوه في اصطياد حيوان يدعوه وقد لا يفهم منه ما يريد فيكرر ذلك الصوت الذى يدعو به . وتكرار الصوت تعدد الحروف . ومن ناحية أخرى فأن الحرف الواحد يصعب النطق به منفردا ولا بد له من تنفس يسبقه أو يلحقه . وذلك التنفس الصوتي هو حرف لين ينضم للحرف المراد النطق به فيتكون منهما مقطع واحد . لذلك لم يكن بدعا من الرأى أن نعلن أن كل لغة من اللغات العالمية تتركب كلماتها من مقطع واحد في مبدأ تكوينها . وإبان بزوغها . غير أن تعدد المسميات . وكثرة المعاني تدفع المتكلم أن يخرج عن ذلك المقطع الواحد . فالحروف في لغتنا العربية لا تتجاوز ثمانية وعشرين حرفاً . والمقاطع التي تتركب منها لا تتجاوز بضع مئات تنشأ من ضربها في مثلها . ومن الضرورة اهمال الكثير منها لثقله على اللسان . أو لكراهته في السمع والمرء ان تجاوز ذلك الطور واستعمل الكلمات الثلاثية يتسع المجال أمامه وتكثر المفردات فيتجاوز عديدها العشرين ألفا بضرب المئات الثنائية في ثمانية وعشرين حرفا . وان تجاوز الكلمات الثلاثية الى الرباعية غمرته المفردات

بما يفوق ستمائة ألف من الكلمات بضرب المفردات الثلاثية في عدد حروف الهجاء. وان هو دخل فى المفردات الخماسية كان أمامه طوفان يتجاوز السبعة عشر مليونا من الكلمات. . لذلك كله خرج المرء الى جو المفردات الثلاثية الفسيح ثم تجاوزها الى ما وراءها . . طريق ألجأ الناس اليها عدم كفاية الكلمات الثنائيه للمعانى التى زاد عددها عن عدد الثنائيات : فأنت تراهم يستعملون الكلمة الثلاثية أو الرباعية لمعنى جد بعد توزيع الثنائيات على المعانى التى سبقته. وذلك هو أحد أسباب الزيادة عن المقطع الواحد فى الكلمة الواحدة وليس هو بالسبب المهم بل السبب المهم هو تركب المعنى نفسه وانضواؤه تحت ستار كلمة واحدة : فحيث ترى كلمة زادت حروفها عن الحرفين فلا يفوتنك أنها تدل على معان متعددة فى الاعم الاغلب . ولا تنس أن المعاني التى تقصر الثنائيات عنها هى معان مركبة ليست بساذجة فالمعانى الاولية الساذجة البسيطة محصورة لا تزيد عن الثنائيات إلا قليلا . . لذلك لم يكن عجبا أن قلنا فى باكورة الحديث أن الكلمات فى كل اللغات تتركب من مقطع واحد فى جمهرتها وأغلبها لان منشأها هو حكاية أصوات الطبيعة . وأصوات الطبيعة ساذجة تتركب من مقطع واحد. وقد ألف الرئيس ابن سينا كتابا أسماه أسباب حدوث الحروف ذكر فى خلاله أن كل حرف من الحروف الهجائية

يحكى صوتا من أصوات الطبيعة . (فالعين) تشبه ذلك الصوت الذى ينبعث من اخراج هواء بعنف من مكان رطب (والقاف) نسمع مثالها من فلق الاجسام وشقها و (الشين) من نفوذ الرطوبات بقوة من خلال أجسام يابسة . (كالصوت الذي تسمعه من القطار حين يخرج بخاره بقوه من فوهة مكان الماء الحار) و (الراء) من تدحرج كرة على لوح ثم أتم ابن سينا بقية الحروف وذكر أشباهها من الطبيعة . ودليل آخر على ما نراه الآن . هو ما نشاهده فى اللغات الاولية التركيب . والتى هى فى دور الطفولة أن الاغلبية الساحقة فى كلماتها هى مقطع واحد فهاته لغة البرابره الذين يسكنون فى جنوب مصر . وفى مديرية أسوان ترى اسم القمر بمعنى (وس) والخبز (كل)والماء (أس) أسماءلا تعدو ذلك المقطع الواحد . ولقد حدثناك عن مثل كثيرة لذلك من اللغة الصينية واللغات الاولية حين حديثنا عن لغة القبائل المتأخرة فارجع اليه وضم له أن اللغات السامية أيضا ترجع مفرداتها الى مقطع واحد ففى اللغة السريانية (حش) بمعنى تألم و (زل) بمعنى نقص . و (كس) بمعنى قصم . وفى العبرية (زخ) بمعنى طهر : و (دق) بمعنى دق . ولا تنس هاتيك الجذور الآرية Ka كالاضجاع . و Pa بالشرب و As أس للجلوس أما اللغة الصينية وبقية اللغات المنحطة فناديناً فيما

سردناه أنها تكاد تكون كلماتها مقاطع واحدة . تلك جذور اللغات سقتها عوامل النمو فاذا بها سيقان ثم أدواح تحمل عشرات الاغصان والاوراق ثم تنتقل أغصانها وفروعها الى تربة أخرى قد تكون أخصب منها فتنشأ شجرات أخرى تكون روضة غناء متعددة الادواح والافنان . ولو تأملنا أى مادة من المواد في قواميس اللغات وما تفرع منها من آلاف الكلمات وعرفنا ماجرى على تلك المادة من عوامل النقل والتجوز والابدال والنحت لعرفنا أنها أغصان وفروع لذلك الجذر الواحد وسنأتى لذلك أيضاً بمثل شتى من لغات متعددة حين حديثنا عن المجاز وأثره فى اللغات . وقبل أن نأخذ فى مثل اللغة العربية أعرض عليك ذلك التشبيه الرائع فى دائرة معارف الاطفال الانجليزية التى تزيد مجلداتها الضخمة عن العشر Encyclopepia.of.Children

حيث تقرأ فى ثناياها ما معناه تقريباً أن مثل الكلمات كمثل الناس ينقسمون الى فصائل وقبائل وعشائر نسلت كل قبيلة وعشيرة من أب واحد

كمقطع Ma ما تفرعت منه غصون كثيرة وحدثناك عنها فى كل لغة في باب الطفولة السابق

واللغة العربية . تقرأ ذلك خلال كل مادة من موادها . وفى تضاعيف

كل مقطع من مقاطعها · تامل المقطع (قط) وما تفرع منه من قطع وقطف . وقطن . والمقطع (قص) وما تفرع عنه من قصم وقصر وقصد . وأغرب من هذا وأعجب . ثم هو فى الوقت نفسه يعطيك صورة رائعة تكاد تلمسها اليد ولو لفـ باثواب عما ننادى به من أن زيادة الكلمة على حرفين هى زيادة فى المعنى ذا ـ المقطع (نب) وهو بذرة لعشرات من الكلمات على شاكلته تشابهن معه فى معناه الاصلى وانفردت كل واحدة منهن بمعنى آخر يتلاءم ذلك المعنى الآخر مع مازاد من الحروف . يدل ذلك المقطع على مطلق الظهور وكان بذرة لكل هاتيك الفروع . نبأ . نبع . نبع . نبت . نبذ . نبه . نبح . ونحن نعلم أن الفرع يحتوي عناصر الاصل ليحتفظ بنفسه ويزيد عليه ليحقق مغايرته . فأنت ترى تلك الكلمات تدل على مطاق الظهور وتزيد كل واحدة منها بمعنى آخر غير الظهور المجرد الذى يطالعك فى (نب) فزاتك (نبأ) بانها ظهور خبر و(نبع) بانها ظهور ماء و(نبغ) بانها ظهور عبقرية في فن أو علم : وأسفرت (نبه) فى ثوب ظهور نباهة فى شأن أو جاه . وتبدت (نبذ) فى ظهور شىء تتخطاه العيون وتنبو عنه الأبصار . وأعربت (نبض) عن ظهور عروق تنبض وتكشفت (نبح) عن ظهور كلب ينبح . ألست ترى أن كل فرع وغصن

من هاتيك الفروع والأغصان يتجلي فى المعنى الاول ثم يزيد عليه ، ولا تنس الخاء فى نبح وما تحكيه لصوت الحيوان النابح حكاية تزرى بالفونوغراف يحكى الصوت المودع فى ثنايا اسطوانته

وانى ليحلولى أن انتهج سبيل المناطقة فى تشريح كلمة نبح هاته أصلا وزيادة لاتبين ماانطوى عليه أديمها من المعاني وما احتواه جثمانها من الدلالات الكثيرة . فتدل (ن ب) وحدها على مطلق الظهور والحاء تزيدها معنيين آخرين هما أن الظاهر صوت حيوان خاص من التى تنبح فلا تصهل أو تموى .. فان ضعفت الباء أتاك معنى ثالث هو أن ذلك الصوت يطابه انسان ولم يك ناشئا عن اختيار الحيوان ورغبته فان زدتها سينا وتاء فقلت استنبح لكنت أمام قضية خامسة هى أن هذا الصوت مطلوب على جهة التنفيس والسرعة : وليس على جهة التسويف والابطاء . فتامل تلك المعانى الخمس كيف انطوت فى أديم هاته الكلمة الواحدة وثق أنها خمس قضايا تتطاب كل واحدة منها البرهان اليقينى لاثباتها والدلالة عليها . فقد يعترضك أحد من الناس بانه لم يظهر شىء . أو أن الظاهر لم يك صوتا . أو أنه صوت وليس نباحا أو أنه نباح صادر عن رغبة الحيوان وطبيعته . أو انه مطلوب لكن على جهة التسويف والابطاء وليس كما تدعيه (بسينك) أن طلبه سريع

وقد يحتد بينكما الحوار والجدل وقد تنشأ عن ذلك الحوار والجدل أمور جسام . كان رأيت ما يشبه تلك السين في حجة وقف واراد أحد المستحقين أن يستشفع بها لتعطيه نصيبه عاجلا غير آجل . .

كل ذلك يدعونا أن نعض النواجذ على ما ارتأيناه من أن الأصل في سبل التفاهم الانسانية هو ذلك المقطع الواحد . وأن ما زاد عليه هى معان أخريات أنضممن الى المعني الأول كل بكلمته . بل نحن على يقين من أن الانسان في العصور الأولي كان إذا أراد ان يعبر عن تلك الكلمة التى معنا لا يسعه إلا أن يعبر عنها بخمس كلمات لكل كلمة معنى يخصها غير أن الرغبة في السرعة واختزال الكلمات اختصرت هاته الكلمات الخمس الى كلمة واحدة . وما يدرينا أن تنضم تلك الكلمة الى أخريات مثلها في مستقبل الأيام فتندمج معها وتصبح واياها كلمة واحدة ؟ ليس ذلك ببعيد . على أنه ليس قصراً على اللغات الأولية . بل هو فى أرقى اللغات العصرية ففى اللغة العربية كلمات لا يمكن أن يعبر المرء عن إحداها فى اللغات الأخرى إلا بجملة كلمات (فتضاربوا) في لغتنا لا يمكن التعبير عنها فى الفرنسية الا بذلك السطر الطويل ال زون فرابيه ليزن ليزوتر .

ils ont frappes les uns les autres

وكم وددت أن أتعرف تلك الكلمات الخمس التى آلت فى آخر

الأمر الى كلمتنا هاته . وقد يكون ذلك فى الأمكان لو قارنتا بينها وبين شقيقاتها الساميات . غير أنا سنخرج بحكم ظنى . أما اليقين ورفع الاحتمال فذلك ما لا طاقة لنا به . فلغتنا العربية لم تدون الا بعد أن بلغت أقصى درجات سموها فى التراكيب والأساليب . ولا نعلم عنها الا تلك القطع المشرقة الديباجة فى أواخر العصر الجاهلى . ولو أنها دونت فى فجرها . أو لو انا عرفنا شيئاً عن تطوراتها فى آلاف السنين قبل بزوغ شمس الأسلام على ربوع الجزيرة العربية لقلت المهمة الشاقة التى يتجشمها من يريد البحث في تركيب الكلمات وتحليلها . وارجاعها الى جذورها الأصلية . وبذورها الأولية . غير انا نستشف فيها أثر النحت كما هو فى غيرها يأتي الى الكلمة فيجعلها حرفاً . والى الكلمات فيصيرها كلمة واحدة . بل قد يأتى الى الجملة الطويلة العريضة فيجعلها حرفا . وقد يتعدى ذلك فيجعلها تنوينا تتذيل به كلمة أخرى . فتلك حروف الجر والعطف كانت في أصلها كلمات مستقلة لها دلالتها الخاصة بها لكن شذبها النحت وانتقص أطرافها فصيرها حروفا . واستبهم دلالتها الذاتية . واضحت محتاجة الى فعل أو اسم تنفث فيه روحها . وتبين فيه دلالتها (فالكاف) كانت فى عصرها الاول (أكن) بمعنى حقيقة . وكأني بالانسان حينما أراد أن يشبه الفتاة التى أستلبت لبه بالبدر قال (فتاة أكن بدر) بمعنى حقيقة بدر

فانتقص النحت أطرافها وصيرها كافاهيفاء القوام. و (واو) العطف كانت في الاصل (وو) بمعنى وصل . وكان الناس يعبرون عن نجح محمود وعلى (بنجح محمـ د وو على) بمعنى نجح محمود واتصل النجاح بعلي غير أن النحت جني على تلك الواو بجنايتين أضاع نصفها وذهب باستقلالها في الدلالة

وتعدى النحت الى بسم الله الرحمـن الرحيم فجعلها بسملة . والى صلى الله عليه وسلم فجعلها (صلعم) . وخيبة الله على من يستكثر (صلى الله عليه وسلم على مبعث النور للانسانية فيختزلها ذلك الاختزال الشنيع) ولقد نسمع الى الشاميين يستفهمون عن اسمك فيقولون (شسمك؟) أو عما تطلب فيقولون (شتعوز؟) ولقد كانت تلك الشين جملة استفهامية بمعنى أي شيء تعوزه؟ . أو أى شيء هو اسمك ؟ فلازال النحت يأكل منها حرفا بعد حرف حتى أصبحت حرفا . وفى العامية المصرية (اجـرن . معلهش) حانتا بعد جملتين هما ما عليه شيء . ومن أجل أن .. وفكر في ذلك الأعجاز والايجاز في أبلغ كتاب عرفته الانسانية حيث يقول . (حتى اذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون) كيف استغنى بالتنوين في آخر (حينئذ) عن (اذا بلغت الروح الحلقوم)

ذلك هو النحت وضح كونه سببا في زيادة الكلمة عن مقطع واحد بما يضمه لها من بقايا كلمات . ووضح انه يبعد اللفظ عن مناسبته الطبيعية

لمعناه الأول بما ضمه من آثار ألفاظ أجنبية عن المعنى الأول . وتتبعه في كل كلمة من الكلمات العربية مركب يشق لأنها دونت بعد استكمالها وتمامها . بينما هو سهل فى اللغات الايطالية والاسبانيولية وغيرهما من أبناء اللاتينية لان الام اللاتينية لاتزال معروفة تدرس حتى في الجامعة المصرية . كذلك هو سهل فى الانجليزية والالمانية لان أمهما الانجلوسكسونية لاتزال معلومة فيسهل تتبع كل كلمة وماتركبت منه ثم هو أسهل وأقرب فى اللغات الاولية البسيطة التركيب . فتلك تشف عما ورائها . تركيبها دان وتحليلها . ففى لغات زنوج (غريبو) يستعملون (يامكروزى) اسما للغضب . وذلك الاسم تنظره فتخال انه كلمة واحدة من مبدأ تكوينه كما هو الان .. ولكن لتلك الكلمة تاريخ عجيب يدفعنا الى التأمل في الحالة الجسمية أثناء الغضب . فأنت ترى الانسان لشدة حنقه ترتفع عظام صدره وتهبط . فهؤلاء الزنوج لاحظوا تلك الحالة الجسمية للغضبان فسموا الغضب باسمها فقالوا أولا (آه يامو كراوودى) وترجمتها قبل أن يشذب أطرافها النحت (ارتفعت عظام صدره) فقطع أوصالها . حتى تكسرت اجنحتها وأصبحت كعود الخلال . غدا الابدال على الدال فجعلها راء وانفرد النحت بالباقى .. وقبائل (جزيرة فا كوفر) يسمون الرجل الافرنجي (يكبوس) ولتلك التسمية تاريخ أشد ظرفا من أختها

السابقة . فبينما أهل هذه الجزيرة آمنون في سربهم . معتصمون بأمواجهم اذطلع عليهم من البحر رجل افرنجي له لحية طويلة . فنظر بعضهم الى بعض ثم انصرفوا عنه قائلين (يكي كوكسالكوس) بمعنى رجل طويل شعر الوجه . غير أن جبار الالفاظ لازال يهذب من حواشيها . ويقتطف من أطرافها . حتى أصبحت كما ترى . ثم هو عامل طبعي يجري على الالسن بلم ترد أن تنطق به .. وتكتسح الناس أمواجه دون قصداً واختيار . ولو أنك تسمعت أحاديث الناس وهم يسرعون في كلامهم فما أظنك تسمع الفاظا كاملة . وانما الذي يطرق أذنيك أنصاف الكلمات وارباعها ومجرى الحديث يعين لك اتجاهه . سمعت مرة رجلا ينادي آخر اسمه (عبدالعزيز) وهو يسرع في لهجته فنطق (عبعزيز) وأكل الدال والألف واللام . فعلمت أن النحت طبعي عزيزي . وأن مثله مع الأساليب والجمل كمثل الكتابة بدأت صورا للأشياء كاملة فانتقصت أطرافها السرعة والاختصار حتى أصبحت رموزا أخرى لا تمت الى أصلها التمثيلي بصلة أو نسب . وهاهم الناس في العصر الحديث تدفعهم السرعة وضيق الزمن الي نحت الكتابة فكان الاختزال وبه يساوق الكاتب أسرع الخطباء تدوينا وتحبيرا .

ومن غرائب النحت أنه يعدو على الكلمات كثيرة الاستعمال فينشب فيها أظفاره . ولا يدور بكثرة على اللسان الا اهم من الكلمات . فكأنه

يختار الزم الكلمات وأحبها للانسان يغير من أوضاعها . ويباعد الصلة بينها وبين مناسبتها الطبيعية للمعنى . ويجعلها فى أعجاز ماسبقها من الكلمات فتتضخم وتزيد عن المقطع الواحد

(خلاصة ماسبق)

مكثت اللغة عهداطويلا أبان بزوغها اشارية لاسبيل فيها للتفاهم اللفظى . ولما أن درج الانسان في معارج الرقى وتركبت معانيه. واضطر أن يتحدث عن البعيد عنه الذى لا تمكن الاشارة اليه. وقد يريد أن يتفاهم مع أخيه فى الليل فتحول الظلمات دون رؤية الاشارة فرأيناه ينتقل الى حكاية صوت مايريد الحديث عنه أو صوت مايشبهه فكانت لغة أولية تتركب مفرداتها من مقطع واحد لكل كلمة منها. ثم سار الانسان قدما فى طريق الحضارة والاجتماع وضاقت المقاطع الواحدة عن القيام بكل أغراضه فزاد فيها بضم كلمات أخرى اليها . أو حروف من عنده . ولا زالت أمطار الرقى من النحت والابدال والتجوز تبل ثراها حتى بسقت أغصانها وفروعها . واصبحت مئات الآلاف من الكلمات . ولو تتبعنا الافنان الدقيقة فما اتصل بها من أغصان أكبر منها فالفروع الضخمة ثم الساق فالجذر لامكننا أن نرد كل عشيرة من الألفاظ لجذر واحد خاص

(فكتور كوزان ينفي هذا الرأي وجواب اعتراضه)

مارأينا أحدا من علماء اللغة العربية يعترض المناسبة بين الالفاظ والمعاني . . ولقد حدثناك برواية السيوطي أن علماء اللغة والعربية يكادون يطبقون عليها . وحق لهم ذلك فاللغة العربية ترى المناسبة في جمهرة الفاظها كأنها الحان موسيقية متتالية . تكاد تلمس ذلك الاخاء الرقيق بين اللفظ والمعنى في أعطاف كل نغمة من أنغامها . وفي ثنايا كل نبرة من نبراتها . بعكس اللغات الراقية كلما أوغلن في الرقي يجافين عن الطبيعة وعن محاكاتها فرأينا (فكتور كوزان في كتابه محاضرات في تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر) ينكر تلك المناسبة ويورد لفظين هما (أنا ويكون) ويسأل القراء أن يردوهما الي اصلهما الدال على ماهو واقع تحت الحس ورأى أنهما ليستا قابلتين لردهما الى عناصر أولية .. ومابي أن أرد عليه باكثر من طبيعة الانسان وطبيعة التفهيم وذلك ما أوضحناه في الابواب السابقة . . غير أني الفت نظره لاسباب مهمة تبعد اللفظ عن مناسبته لمعناه . وتخيل اليه أن ليس بينه وبين معناه الاصلي من صلة أو نسب . أهم تلك الاسباب المجاز والابدال . والنحت وهي عوامل طبيعية ينسق المرء في سبيلها دون قصد أو تكلف . فحيث ترى كلمة تنكرت لمعناها فثق أنها مستعارة غريبة عن موطنها الاصلي

أو أن النحت أنتقص منها أوزاد فيها بما ضم من أشلاء كلمات أخرى أو أن الابدال غير من سحنتها . وحور من هيئتها . وقد حدثناك عن النحت حين الحديث عن تركب الكلمة من مقطع واحد باعتبار أنه أهم الاسباب في زيادة الكلمة عنه . وبنا الان أن نتحدث عن المجاز والابدال نبين أثرهما في ابعاد المناسبة وأثرهما فى اللغة

﴿المجاز واثره في ابعاد المناسبة بين اللفظ والمعنى وبيان قانون﴾
(تعرف به الكلمة الاصلية من غيرها وأمثلة من لغات شتى)

زعيم تلك العوامل التى لم تنج من عدوانه كلمة . ولم تبرأ من سطوته لفظة المجاز (ونريد به مطلق النقل)

ولقد أعلنا فيما سبق أن حربا شعواء ستنشب بيننا وبين هذا المجاز دفاعا عن كلمات استلبها من أماكنها . وألفاظ شردها عن مواطنها ففقدت ذلك الاخاء الطلى بينها وبين مدلولاتها الاوائل لكن المجاز وما قدمه للغة من خدمات . وللألفاظ من نعم يجعلنا نلوح له بغصن الزيتون ونشيد بذكره . ونبين ماله على الألفاظ واللغة من أياد بيضاء . فلنتصور أن اللغة كانت قاصرة على المحسوسات لا تعدوها وأن اللفظ كان لا يدل الا على معناه الاصلى لنعلم أن اللغة أبان ذلك كانت محصورة . وان عدد الكلمات فيها قليل ومعجم الالفاظ ضيق لا يكون لغة كلغتنا العربية

هي في طليعة لغات العالمين فسنوقن أنه لا بد من التجوز والنقل حتى تكثر الألفاظ وتزداد المفردات . فالمفرد الذي كان يدل على معنى واحد أصبح يدل على عشرات بل مئات من المعاني بعد تحوير بسيط في لفظه . أو دون تحوير بالمرة . وبذا كثرت مفردات اللغة . وبسقت أغصانها وفروعها وتلك هي نعمة المجاز عليها وعلى المفردات . فكيف ننكر فضله ؟ أو نعلن الحرب عليه ؟

لقد كان الناس إذا عن لهم ما لا يعرفون له أسما لجأوا الى المجاز فأخذوا كلمة من ناحية ودلوا بها على ذلك المعنى الجديد يتخذون العلاقة جسراً يعبرون عليه من معناه الأول الى معناه الثاني . وقد يعبرون به فينقلونه من معنى الى معني عشرات المرات فاذا بتلك الكلمة الواحدة عشرات الكلمات ومئاتها (والعلاقة) كثير عديدها متنوع أسبابها . فقد يشرد اللفظ عن معناه الأصلي الى معني آخر لأنه أشبهه أو ينشأ عنه أو يجاوره أو يتآخى معه في الذهن ابان التفكير ولو كان ضده وعلى العكس منه لذلك تكون مهمة الباحث وعرة المسالك . وطريقه متشعب الأطراف اذا أراد أن يرد الكلمة الى أصل يناسب المعنى ويتآخي معه . ولم يكن التجوز شأن الناس ابان فجر الانسانية فحسب . بل هو في كل عصر وفي كل أمة . وبيننا في حديثنا ومحاوراتنا . فهب أنني رأيت شيئاً ولم أستطع

التعبير عنه. أو أن من اتحدث اليه لم يفهم عني ما أقوله.. ألست ترى معي أن ألجأ الى التشبيه ثم المجاز اوضح غرضي. وأبين مرادي ؟ ذلك مانحسه من أنفسنا كل ساعة وهو طبعي في الانسان في جميع طبقاته.. يذكرني حديث المجاز وأنه طبعي بريفي زار العاصمة فجابهته المناظر بما لا عهد له به. رأى السيارة في طريقه ولم يكن يعرفها من قبل ثم ذهب الى حديقة الحيوانات فرأى الزراف والغزلان والضخم من الثعابين. ثم عاد الى اخوان القرية يحدثهم بما رأى فجاء في ثنايا حديثه أنه رأى سيارة تنهب الأرض في سيرها وحدها دون خيل تقودها كأنها (قطعة من سحاب) وغزلانا كأنها (المعزى) وزرافة كأنها (جمل) وثعبانا (كسهم الساقية) وهكذا تراه سلك السبيل الطبيعية في تصوير المعنى بالتشبيه الذى حدثنا عنه علماء التربية بأنه أهم وسائل الايضاح. والتشبيه عملية تتطلب ذكر المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه في أغلب الأحايين. والناس مدفوعون الى حب الاختصار والاقتصاد فيحدوا بهم ذلك كله الى حذف كل تلك الأركان والابقاء على المشبه به وحده. فبدلا من أن يسلكوا معك سبيل اللف والدوران فيقولون رأيت فتاة كأنها الشمس حسنا وبهاء تتحرك ألسنتهم بتلك الكلمة البسيطه (رأيت شمسا) وذلك هو المجاز. واليه ينتهي التشبيه ويضع رحاله.. وكذلك كان

الأنسان فى عصره الأول إذ لم تسعفه لغته . ولم تمده بلفظ ينعكس على ضوئه المعنى تراء ينساق للتشبيه فالمجاز . وهنالك تنتقل الكلمة للمعنى الجديد ثم تستمرىء ذلك المرعى . وقد يكون أخصب من المعنى الأول بكثرة دورانه على اللسان فيصبح أحب اليها فتستمسك به . وهو بدوره يستمسك بها . حتى اذا طال عليها الأمد . وبعد وضع اليد المدة الطويلة تصبح هى المالكة له حقيقة لا مجازاً . والدالة عليه بالاستحقاق لا عن طريق الاستعارة والافتراض وتنسى ما كان بينها وبين المعنى الأول من علاقة وصلة . وتدل على المعنى الثانى ولم تكن تعرفه من قبل بل سافرت اليه من مكان سحيق : وما دامت غريبة من موطنها فليس ببعيد ألا يكون بينها وبينه مناسبة أو ملاءمة طبيعية

ونحن اذا أعلنا ان اللفظ يكون لمعنى ثم ينتقل عنه الى غيره . وأنه قد ينتقل عشرات المرات . وأن الكلمة الواحدة قد تتولد عنها عشيرة أو قبيلة من الكلمات تنتقل الى المعانى الكثيرة فتترك في كل واحد منها طابعها وميسمها . وأن الأغلبية الساحقة من الكلمات خضعت لسلطان المجاز وطاوعته فى الهجرة والأسفار انما نعلن أمراً جرى في كل لغة واحتل كل مادة من مواد القاموس. وقد تستطيع أن ترد كلمات المادة الواحدة أو المواد الى أم نسلن منها جميعاً .

ففى اللغة العربية حينما نظرت في القاموس بصرت بما أحدثك عنه .

وقد يظهر ذلك النسب وقد يخفى فى كثير من الأحايين لأننا لا نستطيع أن نعرف تاريخ كل كلمة وما أنتابها من هجرة وأسفار خصوصاً في لغتنا العربية التى لم تصل الينا إلا بعد ان أكتمل نموها . وزها جمالها. ثم هو مرتبط الى أقصى حد بعقلية كل أمة وعوائدها وطرق تفكيرها . وأنى لنا نعرف ذلك عن طريق اليقين في كل هاتيك العصور العريقة فى القدم ؟

وبنا أن نبحث فى قواميس اللغات وننظر أى مادة تنفرج عنها الصفحات دون قصد لمادة معينة ونحن على ثقة من أنا سنجد فى أى مادة ترابطاً بين مفرداتها مما يدل على أنها كانت في الأصل واحدة ثم سقتها قطرات التجوز والنقل فأصبحت كلمات متعددة . وأن الأصل فيها بذرة واحدة تفرع عنها مايقاربها من المفردات

ونريد أن الآن أن نعرف ذلك المصباح الذى نكتشف على ضوئه أصالة الكلمة من فرعيتها . والسبيل الذى نسلكه لنهتدى به الى اكتشاف الام من بناتها . وسبيل ذلك وعر مسلكه غير أننا نحاول أن نعطى للقارىء شيئا من القانون يقرب له ذلك السبيل الى حد بعيد . ولعل أهم تلك السبل هو وجود الكلمة فى عدة لغات وأقرب مايكون ذلك في اللغات الشقيقات اللاتى يتفقن فى كثير من المفردات.. ففى اللغة العربية لو رأينا كلمة فيها وهى

فى الوقت نفسه فى العبرية أوالسوريانية أو الكلدانيةأو الاشورية أو البابلية . أو الحبشية أوالفينيقيه أوالقرطاجنية وغيرهن وغيرهن من الشقيقات الساميات نعلم أنها يغلب أن تكون هى الام لكلمات المادة التى اشتركت معها ككلمات . أب . أخ . الله . اسم . حى . واحد . اثنين ثلاثه . فهى فى العبرية على التوالي أب . آح . أيل . اشم . عد وايحاد اشناى شلوشه كما هن في الاشورية أيضا على التوالى أبو : أخو . ايلو سوموا : أدى ايخيت . شاناى : شلوشت فوجود هاته الكلمات في تلك اللغات السامية دليل على قدمها وأنها اجتازت أماكن أخرى واستقرت فيها فتفرع عنها مفردات كثيرة كما نوع من أشكالها : وشعب من فروعها الاشتقاق صغيره وكبيره وأكبره: والذى ينصره تفكيرى أن الاشتقاق يرجع الي المجاز وهو جزء منه لاشىء آخر خلافه فالضارب والنائم : واللاعب . لماكان كل منهم يقوم بالضرب واللعب والنوم سميناه بمايقرب من هاته الكلمات (العلاقة السببية) : فحيث ترى كلمة اشتقت منها أخرى أوأن مثيلتها وجدت فى اللغات السامية أو بعضها فاعلم أنها هي الاصل وما عداها فروعها :: غير أن ذلك بالنسبة للعربية : وبالنسبة للانجليزية فإن رأيت كلمة فيها وفى الالمانية أو الهولاندية أو الدانماركية أو غيرهن من بنات التيتونيه الانجلوسكسونية فاعلم انها أصل لغيرها من

الكلمات : وان تكن الفرنسية فوجود كلمتها فى الايطاليه او الاسبانيولية او البورتغاليه وغيرهن من اللائى نسلن من اللاتينيه فرجح انها اصل لماماثلها فى الفرنسية من الكلمات :

وان رأيت كلمة فى اللغات الاوروبية والهندية وشقيقاتها الافغانية والفارسية فثق أنه جذر الجذور كالعدد اثنين فهو فى الانجليزية توو فى الفرنسية ديه. وفى الايطالية دوى وفى الالمانية سواى وفى الهندية السنسكريتيه دو وفى الفارسية دو. وفى الافغانية دوا . فأنت ترى ذلك العدد في كل هاتيك اللغات واحد تقريبا غير أن الانجليزية ابدلت الدال تاء كما ابدلت تاء تربوث من دال دربوت والالمانيه أبدلت تاء ابنة عمها الانجليزية سينا كما ابدلت فى استخذ من اتخذ

كذلك العدد تسعة فهو فى الهندية آت وفى الافغانية اتو وفى الفارسية هشت وفى الانجليزية إيت وفى الالمانيه أخت. وكثير غير هذين العددين من الكلمات اشتركت في اللغات الهندية الاريبه IndoEuropean مما ساعد المستر بوب Bopp العالم الالمانى على اكتشاف القرابة بين تلك اللغات الآرية. ومما يدل على أن الاوروبيين نزحوا اليها من أواسط آسيا وتلك الفائدة التاريخية هى إحدى فوائد علم اللغات

La. Philologie وسنتحدث باسهاب عن المقارنة بين هاتيك اللغات فى كتاب لنا بين يدى الطباعة اسمه (تناسل اللغات . وأسباب اختلافها)

من تلك الصورة الرائعة التى عرضناها أمام القارىء يتبين أن وجود الكلمة فى عدة لغات دليل على أصالتها . ودليل آخر هو دلالة الكلمة على معنى حسى . فحيث ترى المعنى حسيا فرجح أنه أصل الكلمة أخرى من مادتها دلالتها معنوية . لأن الناس عرفوا الحسيات قبل المعنويات . كذلك ما أثبت التاريخ معرفته قبل غيره يترجح أنه أصل له . . كل هاته أدلة على أن من الكلمات ماهي أصول ومنها ماهى فروع. وأنه لولا المجاز ما كثر عديدها . ولا نمت أفرادها . تشهد بذلك قواميس اللغات تقرأ فى خلال كل مادة من موادها أن أحد مفرداتها هو بذرة لما عداه . وأمامى الآن قواميس من اللغات العربية والفرنسية والانجليزية . وسأبدأ بقاموس المحيط فى اللغة العربية . وها أنذا قد افتتحته كما يفتح من يريد أخذ الاستخارة من الكتاب يقرأ ماتتيحه الصدفة له ويطبقه على نفسه فأذابى مادة (أمه) بمعنى قصده ذكر فيها الفيروزابادى عشرات من الكلمات. فذكر (الأم) وتحدث عن (الأميمة) بمعنى مطرقة الحداد . وحجر يشدخ الرءوس . ثم تحدث عن (الامام) وأنه يطلق على الرسول الأكبر صلى الله عليه وسلم . وعلى الدليل والحادى . كما ذكر (الأمة) وأنها تدل على الشرعة والدين والنعمة وغضارة العيش . فحدثنى بربك . ألست ترى أن معنى القصد ينشر لواءه على كل هاتيك المفردات . فالشرعة والدين والنعمة أمور يقصدها الناس . وذاك الحجر الذي يشدخ الرأس لما كان يهوى عليها ويقصدها بالأذى سميناه (أميمه) وأن مطرقة الحداد لما كانت تفعل بالحديد مايفعل الحجر بالرءوس سميت باسمه . وارتباط بقية المادة بأصلها لايمترى

عاقل فيه. ونريد الآن أن نعرف أي هاته الكلمات أصل وأيها فرع؟ فعلى ضوء القانون السابق الذي نعرف به الأصل فى كلمات المادة من وجودها فى اللغات السامية بالنسبة للساميات أو أنه يدل على المحسوسات نرى أن كلمة (الام) هى الاصل. فقد رأيناها توجد فى كل لغة فضلا عن الساميات. على أن لفظ (الأم) نفسه منقول عن حكاية مضغ الطعام (العلاقة السببية) فهى مصدره فى عهد الطفولة وفجر الحياة.. وأود أن أوجه نظرك الى أن صاحب القاموس رتب مادته حيثما اتفق وكما وجهته الصدفة.. وكان حريا به أن يرتبها بحسب الأصالة والفرعية. لكن أني له تعرف ذلك وهو أعسر مطلب يتطلب تعرف تاريخ كل كلمة من يوم أن كانت فى أحضان امها السامية الاولى وذلك مالا يكاد يظفر به انسان.. تلك نظرة منا فى القاموس العربى وسنتبعها نظرة فى القاموس الانجليزى ولن نتعمد مادة خاصة كما لم نتعمد ذلك فى سابقه. وساغمض عينى وأضع اصبعى على أية مادة تلامسه وها أنذا قد فعلت فكنت أمام كلمة Bow باو بمعنى انحنى ويتلوها هاته الكلمة كلمات Bow باو بمعنى الانحناء وباولدر Bowlber اسم لنوع من الصخور كرى الشكل و Bowels. باولز اسم للامعاء Bower وبور اسم للمظلة. و Bowsprit وسبريت اسم لمقدم السفينة Bowman بومن اسم للرامي بالقوس Bowl باول اسم للكأس فتأمل ذلك اللفظ الدال على الانحناء كيف سميت به ذلك النوع من الصخور التى تنحنى جوانبها فترسم كرة تلتوي خطوطها فلا تستقيم. تأمل انحناءها لتعلم أنه سبب فى اطلاق هذا الاسم عليها ثم انظر الى الأمعاء كيف تعرجت والتوت كى تمثل لك كتلة من الاحبال فى صندوق وبذلك استحقت أن يطلق اسم الانحناء عليها. ولا تنس انحناء مقدم السفينة وتحدب حيزومها الذى يشق عباب الماء كما تشق يد الصبى ترابا يعبث فى

نواحيه لتعلم أن انحناءه سبب فى اطلاق هذا الاسم عليه . وان اتخذت المظلة مجنا من الأمطار ولفح الهجير وانحنت عليك تقيك بنفسها أعاصير الطبيعه. فتأمل انحناءها وتذكر أن الانجليز اشتقوا لها من الانحناء اسما . بينما العرب لاحظوا فيها ظلها فسموها مظلة . وانتحي الفرنسيون نحوهم فاشتقوا لها من الظل اسما فالمظلة فى الفرنسية Ombrelle أمبرل مستقاة من Ombre أومبر بمعني ظل . والمظلة تمت الى الظل بنسب وللانحناء بصلة نظرت كل امة لناحية فسمتها باسمها . ثم نعود الى الكاس لانطرب لرونقه . وانما لننظر دورانه وانحناءه لنعلم ان ذلك سبب فى اطلاق اسم الانحناء عليه فى لغة الانجليز .. ولكم وددت أن أذهب الى الغابات والاحراج لعلى أرى بعض أهلها يروعون غزلانها وطيورها بما يسددون من سهام يرسلونها من أقواسهم المنحنية وهم ينحنون عليها حين إرسالها لارى بالعين ذلك السبب فى اطلاق اسم الانحناء على الرامى بالقوس تأمل ذلك كله لتستبين سبيل الصواب فى أنه لولا المجاز وفروعه لضاقت بنا اللغة . وصغرت القواميس . ودونك مثلا من القاموس الفرنسى أتاحته المصادفة وتكشف عنه حين انفراج دفتيه . وما أن انظر فى أول سطر تقع عليه العين حتى أرى كلمة Nabot نابو اسم للزورق ولقد كانت هاته الكلمة قاطرة تجر خلفها عديدا من اخوانها فى اللفظ وأن تفاوتن عنها فى المعنى اللهم الاصلة قد تقرب حينا وقد تبعد أحيانا . وتلك الصلة فى حالتى البعد والقرب كانت الجسر الذى عبرت عليه الكلمة حتى استقرت فى المعني الثانى . تلكم الكلمات هى Nacre ناكر اسم لما يلمع فى جوف الأصداف و Nacrer ناكريه بمعنى جعل الشيء لامعا و Nager ناجيه بمعنى سبح فى الماء و Nageoire

ناجوار اسم لجناح السمكة. و Nageur ناجير بمعنى سابح. و Naïlde نياد اسم لعروس الماء و Nain نا بمعنى تنبال خامل — ألست ترى أن الماء يبرق لامعا فى كل هاتيك المفردات . وأنها ذات قرابة وأرحام نسلت من كلمة واحدة وتفرعت عن جذر واحد أكبر الظن أنه Na نا . أضيف اليه Bot بو فكان اسما للزورق . و Geur جير فكان اسما للسابح فى الماء . و Iade ياد فكان اسما لعروس الماء . و Geoire جوار فكان اسما لزعنفة السمكة . وتأمل تلك الطرافة الرائعة فى تسمية التنبال الخامل بكلمة Nain لأنه أشبه الزعانف فاخذ جزءا من اسمها . كما تتحدث فى العربيــة عن زعانف القوم بمعنى أنهم خاملوهم ومستزذلوهم . . وما كان ذلك للناس عجبا أن يروا العرب والفرنسيين يسمون الخامل بالزعنفة فعدم الفائدة فى كليهما قرب الشبه بينهما فجعل احداهما تأخذ اسم الاخرى

وقانون توارد الخواطر وسبيل تداعي المعاني فى الناس جميعهم واحد . . والمعانى واحدة فى كل لغة من لغات العالمين . تتقارب فى الذهن بأى صلة من صلات ذلك القانون وحينما يدور فى خلد المرء معنى يعجز عنه لسانه يخطر فى نفسه لفظ المعنى الآخر القريب منه فينطق به مريدا التشبيه . ثم يصير التشبيه مجازا ثم يصبح المجاز حقيقة ويدل على معنى لم يكن وضع له من قبل . فلا تعجب أن تواري عنك المناسبة بين اللفظ والمعني فى بعض الاحايين ولا تذهب الى ماذهب اليه (فيكتور كوزان) من إنكار المناسبة بالمرة

«الأبدال وأثره فى أبعاد اللفظ عن مناسبته لمعناه»

«والحرب بين الحروف. وأثر المرأة فى الابدال وفى اللغة»

حرب طاحنة تقوم بين الحروف يشهرها بعضها على بعض فيحتل الحرف دار أخيه . ويتدرع بكل ما أوتيه من قوة . وما وهبته المصادفة من وسائل غير راحم ضعف أخيه . ولا محتفظ له بحرمة جوار : ولا مكترث لمعنى كان أخاه يناسبه حتي اذا اغتصب منه داره واحتلها لم يعد هو يناسب ذلك المعنى أو يتلاءم واياه

حرب معداتها ضعف سمع الأنسان . وتكسر أسنانه . وارتخاء فى عضلات لسانه . ورقة أو خشونة قد يتسم بها فى بعض الأحايين . ثم بيئة لينة تهيء له رقته . وأخرى خشنة تدفعه الى خشونة فى أنغام حروفه وأجراسها تلك معدات الحرب الحرفيه . وهي جماع أسباب الأبدال

فقد يضعف سمع المرء ولا تتأثر أعصاب أذنيه بالموجات الهوائية وهي يحمل اليهما نغمات الحروف . فتصل الى مخه مشوهة . وترتسم فيه مشوهة فينطق بها محرفة عن مواضعها

وقد يضعف لسانه أو يفقد ثناياه فلا يستطيع نطق الحرف من مكانه و يبدله بحرف آخر قد يقرب منه وقد يبعد عنه . . وقد ينغمس فى ترفه وليِنه فيرقق الحروف الضخمة شيئا فشيئا حتى تحل مكانها الحروف اخرى أرق منها وقد يتبدى المرء وتخشن طباعه فيخيل اليه أن الحرف الرقيق شارة اللين والدعة فلا يزال به يفخمه حتي يتبدل به حرفا آخر . وهنا تطل برأسها غريزة التقليد الطبيعية فى نفس كل انسان فتذيع عن الناطق حروفه المبدلة ويتلقفها الناس

و يستعملونها فتفقد كلماتهم مناسبتها للمعانى وحسبك أن ينطق بها (زعيم أو رئيس) فتسري في الفاظهم كما يسري البرق حول الكرة الارضية فى ثوان معددات فذلكم سعد زغلول باشا وقد كان رحمه الله يكاد ينطق (القاف) كافا : وما هى الا أن نطق بها فى خطبه وأحاديثه حتى سرت فى ألفاظ الكثيرين واستعملتها جمهرة من عظماء الامة وكبارها . وسنشاهد تلك الحرب الطاحنة تدور رحاها بين الحروف الهجائيه فى بيئتنا المصرية ونتبين كيف أن المترفين من المصريين مالوا بالحروف الضخمة نحو الرقة والسهولة وكيف انحاز القرويون وأهل البادية منهم نحو الحروف التى تملأ الفم وتتطلب إجهادا للرئه والحنجرة فاتخذوها قبلتهم ؛ وألحقوا بها كل حرف لان قوامه . ورق جسمه . وهنا أرى الأمثلة تحيط بي من جميع الجوانب فأنتقى منها وأنتخب أكثرها تأثراً بأمواج الابدال وأضعفها مقاومة لتياره فتظهر لى حروف القاف والثاء والجيم والراء والتاء وكثير غيرها غير إنى سأقصر حديثى على هاته الحروف وحدها لتكون نموذجا لغيرها . ولعل من الطريف أن أبدأ (بالقاف) فاعجب لأفواه سكان القاهرة والحواضر المصرية كيف ضعفت عن النطق بها فصيحة تنبع من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى فأتوا بالهمزة من مكان سحيق واحلوها ديارها واستعاضوا عن (اقعد) بـ (أأعد) وحرفوا (قل) الى (أل) وكانى بالبدو وأهل القرى حسبوا ذلك لينا ورقة فخالفوا الحضر فى همزتهم ولم يرتضوا الفصحى فاستبدلوا القاف بحرف غريب عن اللغة وأوضاعها يتوسط القاف والكاف ويذبذب بين مكانيها . فتحولوا (بأقعد وقل) الى (اكعد وكل) ثم تعصب كل فريق لحرفه . فأن انسابت على لسانك القاف القروية أوسعتك عيون

الحضريين شزرا . وان نطقت القاف همزية حضرية بين البدو تجافت عنك جنوبهم . وانثنت عنك أعطافهم

يذكرني بحث القاف وترنحها بين الهمزة تارة وبين الكاف تارة أخرى بأيام الطفولة يوم أن كنا فى المكتب نحفظ القرآن الكريم فاجتمعنا نحن صبيان المكتب فى ساعة غاب عنا فيها الفقيه وتجاذبنا أطراف الحديث الذى كان يدور فى بعض الأحايين على الألعاب وأنواعها وعلى الاستحمام فى النهيرات الصغيرة المحيطة بالقرية ثم على السور التى يعالج كل طفل حفظها .. فسئلت بدورى من صبي أعمى فى أى سورة أنت ؟ فأجبت فى سورة سبأ فامتعض من جوابى ثم قال أنها (سبج) لا سبأ ثم اشتد بنا أوار الحوار والجدل وتمسك كل منا بوجهة نظره فتحاكمنا الى العريف فحكم بأنها (سبج) لا سبأ . وبأن الهمز حرف حضرى يجمل بأبناء القرية أن يجعلوه دبر آذانهم . وانضم بقية صبيان المكتب إلى الأعمى والعريف وأخذا الأصوات ضدى بالاجماع . فاعجب لذلك التعصب الطبيعى للحروف المبدلة وتأمل ذلك المرض الذى أصاب (القاف) منذ أحقاب طويلة حتى رأينا ابن خلدون يشكو لها ذلك الداء القديم فيقول ما ملخصه (ومما وقع فى لغة هذا الجيل العربى لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شانهم في النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها كما هو مذكور فى كتب العرب أنه من أقصي اللسان ومافوقه من الحنك الأعلى بل يجيئون بها متوسطة بين القاف والكاف . وهى موجودة للجميع أجمع حيث كانوا من شرق أو غرب)

وبعد سطور قليلة قال (ولعلها لغة النبى صلى الله عليه وسلم بعينها وقد ادعى ذلك بعض فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ فى صلاته اهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الجيل تفسد صلاته) ثم لم يأنس لذلك

الرأى بل رد عليه بان القاف الفصحى وهي لغة الأمصار فى عهده وهم قد توارثوها منذ عهد بعيد . وقد حدثنا قبل ذلك بأسطر قلائل أن القاف المحرفة يظهر أنها لغة مضر الأولين . فها أنت ذا ترى ابن خلدون وهو أكبر المفكرين فى عصره يضطرب بشأن تلك القاف ولا يأتى برأى قاطع . . ونحن لاتخالج نفوسنا أية ريبة فى أن القاف الفصحى هى التى نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم . وأن فتوى ذلك الفقيه أكذب الفتاوى : فان اللغة طريقها السماع قبل كل شيء . والكتابة مهما بلغت أقصى درجات سموها فى أى أمة من الامم لن تستطيع أن تصور اللهجات كما هى باجراسها وأنغامها : وقد تواتر القراء والمحدثون وهم آلاف الألوف منذ أن بزغت شمس النبوة إلى ذلك العهد وهم يلقن بعضهم بعضا سماعا ومشافهة تلك القاف الفصحى نقلا عن الرسول الأكبر صلى الله عليه وسلم . . ولم نر شعبا من شعوب الأرض بذل أقصى جهده فى المحافظة على ألفاظ أنبيائه معشار مابذل المسلمون من الجهود فى المحافظة على ألفاظ القرآن وكلمات الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يفاجئنا أحد عنه بتلك القاف المحرفة حتى ولا من الخوارج أو الروافض . إن هو إلا أفك افتراه ذلك الفقيه ولم يعنه عليه أحد بل جاء ببهتان وزور . ولكنها القاف لم تعدم نصيراً فى التحريف كما كان (للجيم) المحرفة أنصار من البدو الجافى الطباع يحرفونها لما يقرب من (الشين) فتوشك أن تكون كحرف جيه الافرنجى . . وآخرون من الحضر يلبسونها ثيابا من الرقة واللين ويدفعون بها الى أعلى الفم قليلا فتماثل الحرف G الافرنجى أيضاً :

ولا تنس الثاء تتدرع بتكسر الأسنان فتعلن الحرب على السين وتحتل مكانها فى منطق الأثرم . ثم أعجب للراء كيف نقلت فى بعض الأحايين الى

(الغين) وكان سلاحها فى اغتصاب موطن (الراء) أنها الراء البار يسية : ونحن مفتونون بباريس وما تصدره الينا من أزياء وحروف . ثم ارتدت (الراء) ثياب اللام فاحتلت لها مكانها . وتحولت اليها فى أفواه العمال (وأبناء البلد) من سكان القاهرة تقليداً منهم لبعض المهاجرين اليهم من صعيد مصر الذين ظهروا بينهم بقوة الاجسام فكانوا مثلا جديرا بالمحاكاة . فتأمل ذلك . ثم ارجع البصر كرتين الى (التاء) وتسمعها فى فم الأوانس والغيد المترفات . ومن أملى عليهن الدلال أن يحرفن الحروف عن مواضعها لتشنف سمعك بتاء لازالت الرقة تهذب من حواشيها حتى قاربت أن تكون (سينا) . أما أنا فعلى ثقة من أن تلك التاء ستبدل سينا على مر الأيام . فان أوانس اليوم هن أمهات الغد . والام تبث فى طفلها لهجتها : وقد ذهب علماء اللغة Les Philologistes الى أن المرأة لها أكبر الآثار فى تحريف الكلمات وهى التي اخترعت اللغة . وعنها تناقلتها الذكران من العالمين .

فلقد كان الذكور يذهبون الى الغابات والأحراج . ومساقط الماء . والى منعطفات الوديان سعيا وراء الرزق . وتطلبا لمايش هى أسباب الحياة . بينما تجلس النساء مصطليات حول نار ترسل دفئا ينبعث تياره فى أجسامهن . والحرارة كما يقول ابن خلدون تبعث السرور فى النفس مبرهنا على ذلك بالسرور الذى يحس به الجاثم فى الحمام يشتد به الطرب حتى تتحرك أوتار صوته صدحا وغناء ، .

تجلس النساء حلقات حول النار ويتجاذبن أطراف الحديث من كل ناحية يتحدثن عن ذكورهن وشجاعتهم . وقوة سواعدهم . ودفاعهم عن القبيلة . ثم يتحدثن عن أنفسهن وعما يتحلين به من الأصداف والودع . وقد تبدر من

إحداهن كلمة يطربن لها فيقابلنها بصدور رحبة وينطقن بها حتى اذا عاد أبناؤهن وآباؤهن وأزواجهن سمعوا من أفواههن ما اتفقن عليه من الاصطلاحات والعبارات فيقتفون سبيلهن . واللغة حوار بين اثنين أو جماعة وهى لن تكون الا حيث الاجتماع والايناس - ولنتبين أى الفريقين أشد حبا للايناس والاجتماع . وأكثر نفرة من الاستيحاش والفراق لنعلم أن أكثر الفريقين أنسا وحبا للاجتماع هو الذى سبق أخاه فى اختراع اللغة . والسير فى سبيلها . ومن البداهة بالمكان الاول أن المرأة آنس من الرجل فكانت هى البادئة باللغة . وأخرى هي أن المرأة أطلق لسانا . وأسرع منطقا من الرجل رغم احتجابها فى المنزل وابتعادها عما يثير العواطف ويحفز للكلام . ولن تفرع الرجل فى منطقه الا باستعداد للكلام هو أقوى فيها من الرجل . فيحدوا بها استعدادها الى أسبقيتها . وقوة تأثيرها . ذلك ما تشهد به طبلة الأذن التى طالما سئمت إسهاب الحماة . وثرثرة العجوز : ولو شئنا أن نعد ما ينطق به الرجل فى يومه الطويل وقارناه بما تتحدث به المرأة فى ساعة واحدة لعلمنا أن ساعة المرأة أملأ بالحديث من يوم الرجل مهما حاولت شمسه ألا تغيب . . فالرجل له من عمله ما يشغله عن الحديث والثرثرة بينما فرغت المرأة من العمل فعمدت الى الكلام تقتل به الوقت . طبيعة فيه أودعت جسمه عضلات قوية يستخدمها فى تعبيد سبيل الحياة . وطبيعة في المرأة أضعفت من عضلاتها فألزمتها بيتها . وجعلتها تفنى وقتها بالحديث عن الجارات والصاحبات . وحيث يكثر الكلام تسك مفردات اللغة وتنجلى ألفاظها . وبذلك ننظر أثر المرأة فى اللغة وقوتها فيها . ومادامت قوة المرأة فى اللغة أمرا طبيعيا فلنتبين أثرها فى العامية المصرية . وهناك نعجب للدلال وتمزيقه أديم الفصحى . . بل أديم العامية أيضا . وتقطيعه أوصال كل أسلوب من أساليب

التفاهم البشريه حتى لايكاد يسمع أحدنا من فم هؤلاء النسوة كلمة تامة أبدا وانى لأخجل أن أسجل على صفحات هذا الكتاب كلمات مسخنها وصيرنها أعجوبة الأعاجيب . وماعلى القارىء الآن أن يراجع ذاكرته . وماعسى أن يكون قد سمعه منهن ليتبين خطر أثرهن فى اللغات . لاجرم أن لغة الام هي الصورة التى تنطبع فى ذهن الطفل ابان عهد الغضارة . وتترك فيه أثرا تزيده الايام ثباتا وقوة . ولا ننس أثر المرأة فى الرجل نفسه وماتوحيه اليه من ألفاظ تنطق بها محرفة تتلقفها أذنه وتعلق بذاكرته فتنساب على لسانه دون وعي أو استذكار . وقد تنطق احدى الممثلات بكلمة ترسلها دعابة من فوق المسرح فأذا بتلك الكلمة تشرق وتغرب : وتسرى فى الشمال والجنوب . فيتحدث بها النساء فى خدورهن ثم تنتقل الى اطفالهن وأزواجهن . وبذا تتحرف اللغة وتشيع فيها اللهجات الفاسدة وسيكبر خطر المرأة ودلالها على اللغة مادامت العامية تنحدر فى طريقها الذى تتردى فيه . وتجرى فى تياره . وتجدها من الجرائد والتمثيل مايذيعها و يضمن بقاءها وخلودها . ففى مصر جرائد هزلية تصدر باللغة العامية . والاسلوب الهزلى أعلق بالذهن . وأشد أثرا فى الأنسان من الأسلوب الجدى . فهو لذلك اشد خطراً على اللغة الفصحي من كل شيء آخر . تلبس النكتة ثوبا عاميا وتسكن شغاف القلب بما لبست وكأنها قنبلة تنطلق فى صدر الفصحي رمت أمامها منها صريعة . .

لذلك نتقدم بالعتاب الرقيق للأستاذ شفيق صاحب جريدة (المطرقة) على أسلوبها الهزلى الملىء بالمفردات الافرنجية . وثقتي به وهو الشاعر العربى والكاتب البليغ أن يقدر خطورة ذلك على الفصحى (وهو لاشك مقدره) فيرفع من أسلوب المطرقة الى درجة تقرب من الفصيح غير

عابث بنكتته الحلوة . فالنكتة يزداد جمالها اذا برزت فى ثوبها الفصيح

. والى هنا يريد القلم أن يعجل بى فأ كبح جماحه فيسألنى أنضب معين الفكر أم أخلدت الى الراحة ، ؟

كلا يايراعى العزيز . لم ينضب معين الفكر ولم أخلد الى الراحة . فانت تعلم كم أتعبت شباتك . وكم زاملتك السهر حتى مطلع الشمس . ولكنك عليم بالمذاكرة والدروس. والمواظبة والامتحان فلأستودعك الله حتى أقوم بتلك الواجبات ثم أعود اليك بعد اجتياز عقبة الامتحان لنسطر معا مانسأل الله أن ترقى به اللغة العربية

فالى اللقاء ياقلمى العزيز

﴿ الكلمة الاخيرة ﴾

الحمد لله أن كنت أزهريا . فلولا تلك الجامعة الكبرى التى تهوى اليها أفئدة الناس فيحجون كعبتها من كل فج عميق لما استطعت أن أخط حرفا واحداً فى ذلك الكتاب ولا فى آخيه (تناسل اللغات وأسباب اختلافها). ولرهبت أن أفكر فيهما : فالازهر يؤم رحابه الشامى والمغربى واليمنى والهندى والجاوى والصينى ارتشافا لكؤوس العلم . كما يخطر فى جنباته اعجابا بعظمته الجم الغفير من السائحين الانجليز والفرنسيين والامريكيين . من كل أمه وبكل لغة . ولقد زاملت أثناء الدراسة كثيراً من هؤلاء الطوائف . وكنت أستمع اليهم اذ يتساءلون . وانصت اليهم إذ ينطقون فاعجب لآية الله فى اختلاف الألسن فيحدوانى الاعجاب آن أقارن بينها وافكر فى بنى الانسان كيف افترقت أساليب التفاهم بينهم الى ذلك الحد الكبير . وسقت غيوث الطريقة الأزهرية فى التعليم ذات النقاش والجدل تلك الفكرة حتى نمت فروعها وأغصانها ولا زال ذلك التفكير يملأ على شعاب نفسى حتى صار رغبة ملحة أملت على ما أتقدم به الآن من الحديث عن نشأة اللغات . غير انى معترف بصعوبة ما أحاوله . فبحث كهذ البحث يستغرق جهود الجماعات ويتطلب سياحة عالمية يصرفها الانسان فى بحث اللغات ومقارناتها . وإن كان الأزهر وهو دنيا مصغرة قد سهل لى سبيل البحث فان الفكرة التى استنبطها منه مصغرة . وحسبى انى قد وضعت لبنة فى بناء اللغة أرجو من الشبان أن يضموا اليها لبنات حتى يتكامل بناؤها الشامخ .

ولقد علمت جفاف الابحاث اللغوية فتعمدت سهولة الاسلوب حتى

احببها إلى الشبات الناهض فى وقت نحن احوج فيه للغة من كل وقت آخر . وفى فجر الانسانيه نادى افلاطون بان تصاغ الرياضة فى اساليب شعرية حتى تتعشقها النفوس فتنتفع بها . وقد نادى معه علماء التربيه بسلوك سبيل التشويق فى التعليم فعساى ان أكون قد وفقت فيما درجت عليه من اسلوب وتفكير . تفكير كان منبعه من غرسوا فى نفسى حب البحث والتنقيب أساتذتى الذين سعدت بارتشاف كؤوس علومهم ومعارفهم الاستاذ صالح افندى هاشم وكيل كليتنا (كلية اللغه العربيــة) والحجة اللغوى الأستاذ الأكبر (الشيخ علام سلامه) ونصير اللغة العربية استاذى (السباعى أفندى بيومى) والمثل الاعلى فى التاليف استاذى (محمود افندى مصطفى) وصاحب اليد البيضاء على الثقافة العربية (الشيخ سليمان نوار) واستاذى الجليل (الشيخ امين سرور) بتلك الكواكب المتالقة فى سماء الادب العربى اتقدم الى القراء فان رأوا حسنة فيما فكرت فهم الذين غذوها بروحهم وتعهدوها بتثقيفهم . وان رأوا سيئة فهى منى ولا أعتذر عنها . وأرجو أن ينتقدوها . فانها قضية اللغة . وليست قضية اللغة مما يقبل المعاذير . أسال الله أن يوفقنا لخدمة لغة قرآنه وأن يصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ صحيفة المجهود ﴾

(ومؤلفات صاحب هذا الكتاب)

المطبوع

(١) (طراز البيقونية) فى علم مصطلح الحديث تقرب به المؤلف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلوب طلى. بعضه شعر و بعضه نثر

(٢) (نشاة اللغات) وهو هذا يحدث عن نفسه

﴿ تحت الطبع ﴾

(١) (تناسل اللغات واسباب اختلافها) يبحث فى توالد اللغات ويبين فروعها . ويقارن بين عشرات منها شرقية وغربية سامية وآرية وطورانية بلغاتها . ويكشف فى أسلوب روائى عن أثر البيئات واختلاف الاجواء والمدنيات فى اختلاف اللغات . ونشرت شيئا من ابحاثه جريدة الضياء بتاريخ ٢٨ يونيه سنة ١٩٣١

(٢) (العبقرية وكيف تكون عبقريا) كتاب يقع فى ثلثمائة صفحة أو مايقاربها ويبحث فى العبقريين وما يؤدونه من خدمات للمجتمع . وبيان الرابطة بين حيوية الامة وما تنبته ارضها من العبقريين

(٣) (دلال الحبيب) رواية ظاهرها غزل و باطنها عظة

(٤) (الدعوة الى الاسلام) فى هذا الكتاب أبان المؤلف للمسلمين عن الدعوة لدين الله . وكيف يقومون بها . ويذللون الصعاب التى تعترضها وقد القى جزء منها محاضرة فى جمعية الاخوان المسلمين . وكتب عنها فضيلة الشيخ على محفوظ فى تاريخ ٦ ـ ٤ سنة ١٩٣٢ بانها (كلمة قيمة

مفيدة يصرح لصاحبها بالقائها فى نادى الجمعية)

(٥) (كيف ترقى اللغة العربية ،) ذكر المؤلف فى هذا الكتاب الاسباب التى تسلك الامة العربية سبيلها لتنهض بلغتها من انتشار الجرائد والمجلات وكثرة المؤلفات العلمية التى تنفرد بها العربية . والمحافظة على القرآن الكريم وبيان انه لولا القرآن لحل باللغة العربية ماحل باللاتينية من الانشعاب الى الفرنسية والاسبانية والايطالية الخ والبرهنة على ان ترجمة القرآن أكبر خطر يتهدد اللغة

(٦) (التشبيه) ذكر المؤلف فى هذا الكتاب ارتباط التشبيه بعقليات الامم والجماعات . ودلالته على تلك العقلية واختلاف امزجة الناس فى الصور التى يعرضونها على السامع توضيحا لاغراضهم

(٧) (حسن التعليل) بين المؤلف فى هذا الكتاب قيمة البراهين الشعرية فى الاقناع . وذكر انه لابد للناس من خيال الشعر يخففون به أعباءهم الحيوية . ومقارنة بين الخيالين السامى والآرى . وبين الشاعرين المعرى ودانتى اليجيرى فى كوميدتيهما الالهية المتحدة الفكرة المختلفة باختلاف الخيالين . . .

(٨) (كرامات الأولياء) استدل المؤلف فى هذا الكتاب على وجود الكرامة . وعلى وجوب الاعتقاد بها وأن من ينكرها يكاد يبرأ من الاسلام لخروجه على صرائح النصوص . وقد أهداه الى روح والده المرحوم (الشيخ أحمد عمر النشوى)

***

التقاريظ

كلمة للمربي الحكيم ، والعالم الجليل . محمود أفندي مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية . نقتطف من روضتها تلك الزهرات . قال حفظه الله

يجمل بي أن أقدم إلى القراء الكرام مؤلف هذا الكتاب (نشأة اللغات) وهو الاستاذ الفاضل الشيخ محمود أحمد عمر النشوى . وانما لجأت الى تقديمه لأنى أعلم أن مثله فى انزوائه واحتفاله بالحقيقة . وعكوفه على الجوهر واطراحه العرض . وصمة الطويل . و تجافيه عن الجلبة وكل مايتعلق بها . أعلم أن مثله فى هاتيك الصفات يسيء إلى الناس فيعمى عليهم فضله . ويوارى مزاياه . عرفت الاستاذ النشوى فى العام الماضى فى درس الانشاء العربى بقسم التخصص الذى يباهى بأمثاله . ولقد نجحت فى أصابة الحقيقة وصدق الدلالة حينما لقبت الاستاذ النشوى بلقب « الوثاب » فقد عرفت فيه الهمة فى التحصيل . والتفرد فى الرأى . وجولان الفكر الموفق .

والذى أراه فى كتابة الاستاذ النشوى فى هذا الموضوع أنها تمتاز بميزتين ظاهرتين . احداهما استفاضة البحث واتساعه . وهو فى كثير مما كتب الكاتبون ضيق حرج . وثانيهما حلاوته وارتياح النفس اليه واشباع نهمتها بالأمثلة الكثيرة والموازنات الصادقة . واكثر ماقرأنا عنه مقتضب يعمه الغموض . وينقصه الربط . وحسن القياس . فأنا أبدى اعجابى بالكتاب . وأقدم التهنئة الخالصة لمؤلفه على مااستطاع من انتصار وفوز على الشبهات التى تورط فيها كثيرون . وكشف هو عنها الحجاب

فـغرت مشرقة واضحة المحيا . وأدعو الله مبتهلا ان يهيء للعلم نشاطا من الاستاذ النشوى حتى تسعد به الحقائق . وتحرر من أسر الغموض وحتى تعمر القلوب بنور اليقين . وترتاح إلى دقائق الفنون ارتياحها إلى بسائطها

(كلمة الاستاذ السباعى السباعى بيومى المدرس بدار العلوم وكلية الآداب)

(نشأة اللغات وحاجة الأمة للمجمع اللغوى) هذا عنوان رسالة دبجها فى هـذا الموضوع الاستاذ محمود أحمـد عمر النشوى أحـد الذين يتفقهون فى الآداب بقسم التخصص من كلية اللغـة العربية بالجامعة الأزهرية . وهى رسالة يراها القارىء نتيجة بحث واستنباط وحسبها أنها جاءت وفق ماعليـه مؤلفها من ميل فطرى إلى التفكير . ورغبة فى التحقيق والتمحيص

وليس بعد هذا لمن يريد التعريف بها زيادة لمستزيد

(كلمة سيد الصوفية وإمام البلغاء السيد محمد الغنيمى التفتازانى)

أخـذ أهـل البصر بالعربية فى أنحاء الأرض يحسون من أعماق قلوبهـم حاجتها إلى مضاعفـة العناية ابرازا لمحاسنها . واجـلاء لروعتها وتصويرا لبهائها . والبقاء على مقامها بين اللغات الحيـة فى العالم . وانك لتسمع أنباء هذا الاحساس تتجاذب أصداؤه فى جميع صحف العالم العربى

وعلى الخصوص بعد (فتنة ترجمة القرآن) وقديما كان الأزهر حصن اللغة العربية الحصين . وكم تخرج بين جدرانه حملة ألوية العربية على اختلاف أوطانهم ومنازعهم ممن نقلوا ثقافته الخالدة إلى سائر بقاع الارض . ومن أجدر من أهل الأزهر برعاية لغة القرآن . لذلك لم يكن عجبا أن يطلع علينا الاستاذ الاديب الكريم الشيخ محمود أحمد عمر النشوى أحد علماء الأزهر بكتابه الممتع (نشأة اللغات وحاجة الامة للمجمع اللغوى) فالاستاذ سليل بيت قديم يؤلف رجاله سلسلة متصلة الحلقات فى خدمة اللغة والدين . وقد اغترفنا كما اغترف مشايخنا من بحر علوم والده العارف بالله الشيخ أحمد عمر النشوى أنزله الله منازل رضوانه .

وسيجد القارئ بين سطور هذا الكتاب من البحوث الجديدة الطريفة ما ينطقهم بالثناء على مؤلفه الفاضل الذى بذل فى تأليفه من الجهد ما يحمد له عند الله والناس . وان فى استقرائه الشفاف . واستنباطه المتزن . وصبره على مواصلة الدرس والبحث ما يجعلنا نرتقب له مستقبلا مملوءا بتواصل الانتاج السليم

(كلمة الاستاذ محمود أفندى راضى عثمان مدرس الانشاء بقسم التخصص (شعبة البلاغة والأدب)

الحمد لله بيده الفضل يؤتيه من يشاء . وسلام على عباده المصطفين الأخيار

وبعد فلست أغلو فى حمد . أو أسرف فى ثناء إذ أبر بالحقيقة .

وأظهر المتأدبين على ما رأيت من بحث مبين . وجد مشكور. نعم ،فقد أطلعني مؤلفه الألمعي وهو الى تمام الطبع أقرب . فأخذت أتصفحه. ومضيت فى قراءته . فاذا هو كتاب مبارك يلقى على اللغة العربية وطلابها ضياء وذكرا . وإذا هو جهد قوى يظهر من الحقائق مايبتهج له عقل الباحث الأديب . فلينعم الذين يقرءون اللغة العربية بهذا الكتاب . وليهن المؤلف ماظفر به من إحسان وتوفيق . أجمل الله رعايته وجعله مثلا صالحا للمتأدبين والسلام

(كلمة أستاذى الكبير . وسيدى الجليل الشيخ سليمان نوار المدرس بالكلية)

لأخى الاستاذ محمود أحمد عمر النشوى رسالة صغيرة فى (نشأة اللغات) قرأتها فأعجبتني مباحثها . وظنى أنها ستلاقى اعجابا من محبي الأبحاث الجديدة

تقريظ الشعر

من قصيدة للزميل المحترم الشيخ عبد الحليم النجار أحد علماء التخصص

قد شهدناك باحثا عبقريا ... وعرفنا فيك الصديق الصفيا

فرأينا فى حالتيك مثالا ... مفردا فى نبوغه أوحديا

ولك الهمة البعيد مداها ... لاترى فى الوجود أمرا عصيا

تبلغ المطلب القصى من الامـــــر وان كان عالقا بالثريا
جئت فى (نشأة اللغات) بما لم يبق فيها الجهد غيرك بقيا

قصيدة للأخ الاستاذ محمود الشربيني . نقتطف منها هذين البيتين

فليهنأ الفصحى كتاب ساقه رب الذكاء العبقرى محمود
(سفر) من النور المبين وانه فى غرة العصر الأغر فريد

وخير ما أتوج به ذلك الكتاب آيات بينات جادت بها قريحة حسان فلسطين . وشاعر العرب نسطرها شاكرين . ونسجلها تخليداً لأياديه البيضاء . قال حفظه الله

ايه ، محمود من بيانك للنا س . ومما أوتيت من آيات
معجز كل ما تسطر للنشء وكل الآيات فى المعجزات
زادك الله بالبيان جهوداً فى نشاط وقوة وثبات
ماشدت (نشأة اللغات) بذكرا ك وهز القلوب شدو اللغات

أبو الاقبال اليعقوبى
مفتى يافا سابقا

الفهرس

فلتات الطباعة

كم من المصاعب يلاقيها الطابع إذ يجمع الحروف من صندوق تزيد عيونه عن عشرين وأربعمائة . فلنغفر له زلته . ولا نتجنى على المؤلف بما جناه الطابع . وإنا لذاكرون هنا ماتتوقف صحة المعنى عليه

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٦	٢	الاهام	الالهام
٧	١٤	المكتشفين	المستكشفين
١٨	١٠	التنكولوجيا	التكنولوجيا
٢٣	١٧	ايهام	الهام
٣٣	٥	خمس	خمسا

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٥	٦	فأصوات	فأصواتا
٣٦	١٧	خطيت	خطبة
٤٩	٨	نبع	نبغ
٤٩	١٠	بنفسه	بنسبه
٥٠	٧	صوت حيوان	صوت . وأنه صوت حيوان
٥٠	٨	ثالث	رابع
٦٣	١	الكالمدانية	الكلدانية
٦٤	٥	انه	أنها
٦٤	١١	تسعه	ثمانية
٦٥	١٢	الصدفه	المصادفة
٦٥	٧	لرونقه	لرونقها
٦٥	٧	دورانه	دورانها
٦٥	٨	انحناءه	انحناءها